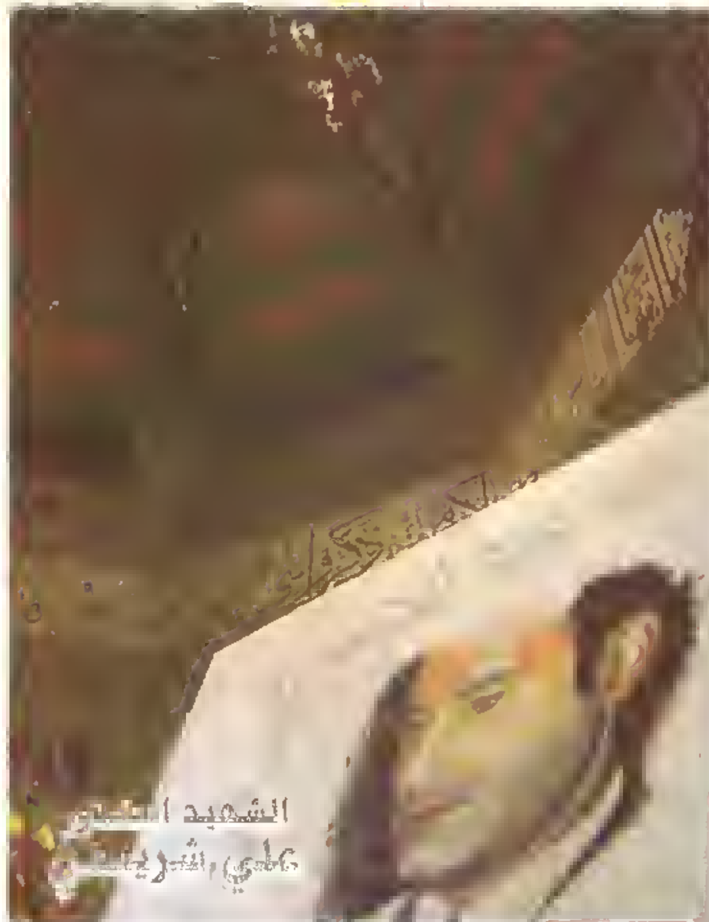
سلسلة **أفكار** معاصرة

١

دِينٌ ضد الدِين



دين ضد الدين

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة: حيدر مجيد



إسم الكتاب : دين ضد الدين

إسم المؤلف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : حيدر مجيد

تصحيح لغوي وفهرسة : محمود البدري

مراجعة وضبط : حسين شعيب

تنضيد وإخراج : حوراء محمود البدري

تصميم الغلاف : New Moon Ray

الطبعة الأولى : ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٧م

مقدمة الناشر

عندما نتكلم عن شريعتي، لا بدَّ أن نتكلم عن الإسلام - الآيديولوجيا - بما يعنيه هذا المصطلح، من ثورة وفكر وحضارة وحاكمية، من هنا طرح شريعتي مفهومه المُوَحد والمُوَحِّد هذا، من خلال ثلاث طرق:

١ - فهم الإسلام فهماً متكاملاً، وعدم الإقتصار على فهم الأمور التي تتعلق بحياة الفرد فقط، بل فهم الإقتصاد والسياسة والمجتمع والتاريخ ومتطلبات العصر، من منطلق الإسلام ذاته، لأنه عقيدة متكاملة، لكلِ زمان ومكان.

٢ - أن يُطَهِّر الفكر الإسلامي من عناصر الجمود والركود، سواءاً التي لصقت به عبر عصور التخلف، أو التي أدخلها الإستعمار.

٣ - أن يصبح الإسلام ثقافة الجماهير، كل الجماهير، وأن يخرج من إحتكار بعض المتاجرين بالدين، والذين جعلوا من الدين دكاناً للإرتزاق، يروجون به أفكاراً حسبوها ديناً عن علم أو جهل،

ليُسقطوا الأهداف السامية للدين الحقيقي[1].

وتعبيراً عن هذه الأفكار جاء كتابه هذا ـ دين ضد الدين ـ أو **«الدين ضد الدين»** والذي يعتبر من أقوى كتبه ـ وأخطرها ـ ليكون حلقة رئيسية في منظومة شريعتي الفكرية، والتي نعمل على إبرازها من خلال مشروعنا القائم لـ: ترجمة ونشر الأعمال الكاملة للدكتور علي شريعتي، وذلك بالإتفاق مع مؤسسة نشر آثار الدكتور في إيران، بموجب عقد موقع حسب الأصول القانونية، والذي أصبح فيه دار الأمير للثقافة والعلوم ـ بيروت يملك الحق الحصري بترجمة ونشر آثار الدكتور شريعتي باللغة العربية.

ونحن إذ نطرح هذا الكتاب للنشر، نتوجّه بالشكر الجزيل للمترجم الأستاذ حيدر مجيد على ما بذله من جهد جهيد، في ترجمة هذا الكتاب، والذي يأتي بعد ترجمته للكتاب الأول ـ التشيع العلوي والتشيع الصفوي ـ ليضيف للمكتبة العربية منارة أخرى من منارات الدكتور شريعتي، ونحن والقراء الكرام بانتظار الإنتهاء من ترجمته للعمل الثالث وهو ـ كتاب معرفة الإسلام ـ بنصه الكامل، والذي سيصدر قريباً بعونه تعالى.

أخيراً ندعو الله سبحانه أن يوفقنا لأداء هذه الرسالة، معتمدين عليه وحده، عليه توكلنا وإليه نُنيب.



(1) يتصرّف عن مجلة الشهيد العدد(20) تاريخ 27/6/1979م ـ ص34.

قالوا في شريعتي

الإمام الخميني(قده)

«لقد أثارت أفكار الدكتور شريعتي الخلاف والجدل أحياناً بين العلماء لكنه في نفس الوقت لعب دوراً كبيراً في هداية الشباب والمتعلمين إلى الإسلام»[1].

السيّد أحمد الخميني[2]

إن ما قدّمه الدكتور شريعتي كان عظيماً، بحيث يتعذّر عليّ الآن الإحاطة به، لأنه في الواقع كان ولا يزال معلم الثورة الإسلامية

(1) من كلام للإمام الخميني(رض)ـ راجع كتاب «شريعتي در جهان» صفحة 194، تأليف حميد أحمدي، والصادر عام 1365هـ. ش، عن شركت سهامي انتشار(الناشر)

(2) مصدر فارسي- از كتاب كتامين ره سوم (مراسيم در سوك دكتر علي شريعتي، آذر ماه 1359هـ. ش/ 1980م)

الإمام السيّد علي الخامنئي[1]

في الحقيقة كان الدكتور شريعتي موالياً، صلب العقيدة وعاشقاً لكل ما هو مقدّس في الإسلام، وذلك ما لمسته منه عن قرب، ولمس من خلال ما أشيع عنه، أو ما قالته عنه التيارات الفكرية في حقه، وهنا يمكن أن نستند في تقييمنا للدكتور شريعتي على نقطة مهمة، وهي من خلال مواجهته للتيارات الفكرية الأخرى في ساحتنا، وكانت هذه التيارات قد بدأت عملها من خلال ثلاثة محاور؛ وهي: مواجهة الحسّ الوطني، ومواجهة كل ما هو إسلامي، ومحاولة تفتيت الأمة. وكانت تلك التيارات تتقدم بحسب اتجاهاتها، ولكن الدكتور شريعتي لما ظهر على ساحة الفكر الملتزم اختلف مع تلك التيارات في عمله بمقدار ١٨٠ درجة، مما يعني أن الدكتور شريعتي كان له ارتباط قوي بالإسلام، وأنه كان على طرفي نقيض مع حثالة المستغربين والتابعين للأجنبي ولكل ما يأتي من الخارج، حيث كانت علاقته بالأمة قوية وكان متفاعلاً معها.. يستلهم منها ويخاطبها وكان ذلك دأبه وديدنه[1].

(١) الولي الفقيه وقائد الجمهورية الإسلامية في إيران، وكان في أيام الثورة على معرفة وصلة بالدكتور شريعتي.

(١) مصدر فارسي: ويژنامه هيجدهمين سالگرد هجرت وشهادت دكتر علي شريعتي، الناشر: گرد آورنده: محمد علي أمير كل، إيران، رشت، ص١، از روشنگران وشريعتي، ص٥٥ ـ ٥٧، شخنراني رهبر معظم انقلاب در مدرسه عالي شهيد مطهري.

الإمام السيّد موسى الصدر[1]

الذي صلى على جثمان شريعتي في دمشق ١٩٧٧م

كان لنا صديق، زميل - قائد من قادة الفكر الإسلامي، هو الدكتور شريعتي، توفي في هذه الفترة الأخيرة. وفي «الرسالة» التي ستطبع إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة، يوجد له نعي وصورة، والعدد القادم من الجريدة سيخصص له بإذن الله.

أحببت أن أنقل للإخوان، صورة عن هذا الرجل، وألقي بهذه المناسبة ضوءاً على البعد العالمي لحركتنا.

(١) السيّد موسى الصدر غني عن التعريف، أسس حركة المحرومين في لبنان، والمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الذي ترأسه، وكان له الدور الأهم في إطلاق وتشريع المقاومة المسلحة ضد «إسرائيل»، ورفع شعار «إن شرف القدس يأبى أن يتحرر إلا على أيدي المؤمنين» ومن هذا المبدأ عمل الإمام الصدر على بناء القاعدة الإيمانية العريضة على المستوى اللبناني، وناضل إلى جانب الإمام الخميني الذي كان يعتبره إبناً من أبنائه.

هذا النص أعلاه جاء في الإحتفال التأبيني الحاشد، الذي أقامه الإمام الصدر تأبيناً للدكتور علي شريعتي في الكلية العاملية في بيروت، وعلى أثره سحب الشاه المقبور الجنسية الإيرانية من السيّد الصدر.

الدكتور شريعتي، أبوه رجل دين غير معمم، إسمه الشيخ محمد تقي شريعتي. وهو رجل فاضل أسس مؤسسة في خراسان اسمها «مجمع الأبحاث القرآنية». وأنا ألقيت محاضرات هناك، قبل عشر سنوات تقريباً.

الدكتور شريعتي، هو إيراني قروي من قرية «مازينان» في إيران، قرب «كوير» يعني الصحراء في إيران. تخرج من جامعة «السوربون»، واختصاصه «علم الإجتماع الديني». وعاد إلى إيران، وكان يعطي دروساً في جامعة خراسان، ثم في جامعة طهران، ثم تحول إلى داعية ديني.

له أكثر من مئة وخمسين كتاباً. كتبه، محاضراته، في الواقع، محاضراته أربع ساعات، خمس ساعات، ست ساعات، سبع ساعات إرتجال، تُسجل وتُطبع وهكذا.

أديب، شامخ، فكره إسلامي نضالي منفتح. إسلاميته، وطبقيته، وموقف رجال الدين، لم تجعل من دعوة الدكتور شريعتي، دعوة محافظة، رجعية، يمينية كما هو التقليد، لأن الدعوة الإسلامية، تعتبر في كثير من الأوساط، دعوة محافظة على الأقل، لكن دعوة الدكتور شريعتي للإسلام، دعوة تقدمية، ثورية، نضالية، أو ما نسميه نحن دائماً في إجتماعاتنا، دعوة حركية، وليس دعوة مؤسساتية. يعني ليس الإسلام دكاناً يجب أن نحتفظ بمكاسبه، ونأخذ لأجله من الناس، ونسخر الناس لخدمته، كما حصل بالنسبة للمؤسسات الدينية.

المؤسسات الدينية اليوم، لها أموالها، ولها أوقافها، ولها رجالها، ولها شؤونها وبروتوكولاتها، ولها خصوماتها، ولقاءاتها، ولها مكاسبها. تماماً مثل الإتحاد السوفياتي أو الصين، بعدما تحولوا إلى دول، ونسوا كونهم حركة إنقلابية عالمية. فبدأوا يفكرون بالإحتفاظ بمكاسبهم، ولأجل الإحتفاظ بهذه المكاسب، يجب التحالف حتى مع الشيطان، أو مع نصف الشيطان، أو مع ربع الشيطان بالتالي، فنرى أن الصين الشيوعية اليوم تلتقي مع القوى اليمينية في العالم للإحتفاظ بمكاسبها وللمنافسة مع الإتحاد السوفياتي، والإتحاد السوفياتي نفس الشيء.

إذاً حركة إنسانية، في مرحلة من المراحل كثيراً ما تتحول إلى مؤسسة، متى؟ عندما تشيخ. الحركة في بدايتها شابة، ناشطة، متحركة، تُخيف، تقتحم، تتقدم، إلى أن تنتهي أنفاس المؤسسين، فتشيخ، وتفكر كيف تحفظ رأسها، ولا تصطدم مع الناس، تتحالف مع هنا، وهنا، تفكر بالإحتفاظ بالمكاسب.

الدكتور شريعتي، في أحد كتبه، يقول: في فرنسا، رحت أشتري مجلة «جون أفريك Jeune Afrique»، فوجدت أن الأمن الفرنسي قد جمع نسخ هذه المجلة الفتية الإفريقية، قلت في نفسي: يا سبحان الله! فرنسا، معقل الحريات، مركز جميع أنواع الدعوات، من الشيوعية المتطرفة، إلى التروتسكية، إلى غير ذلك، إلى اليمين إلى الوجدانية، والوجودية، وكل أنواع الفكر؛ كيف فرنسا هذه تخاف من مجلة «جون أفريك» فتجمعها من السوق؟

السبب أن هذه مجلة شابة، حركة جديدة، تقتحم وتُخيف، بينما الحركات الأخرى كادت تتحول إلى مؤسسات لها وجودها.

طبعاً الدكتور شريعتي، كان أحد قادة الفكر الإسلامي في العالم. أفكاره قيمة جداً، وكان يحضر درسه الأسبوعي، حوالي ستة آلاف طالب وطالبة جامعيون أو متخرجون، في مؤسسة معينة باسم «النادي الحسيني للإرشاد».

طبعاً حورب من قبل الحكم في إيران، وحورب أيضاً من قبل مجموعة من رجال الدين، الذين يعتبرون الإسلام حكراً عليهم، وميراثه من حقهم، وهم وحدهم يفهمون الدين، ولا يحق لأحد أن يفهم غيرهم.

هذا الرجل بالفعل كان مصدر الإلهام، والتفكير والعطاء لكثير من الحركات الإسلامية، من جملتها حركتنا. ونحن سنحاول؛ بإذن الله، بالإضافة إلى العدد القادم من «أمل ورسالة»؛ أن نخصص عدداً نلخص فيه أفكاره، ثم نترجم ونطبع أفكاره وكتبه ومحاضراته، حسب التيسير وفي حدود الإمكان، في لبنان، بإذن الله[1].

بدون شك، إن التيار الذي كان يحترم ويكرّم الدكتور شريعتي، كان تياراً ساحقاً، تقريباً الشبيبة المسلمة في إيران، وهو الذي جعل التيار الإسلامي في إيران أقوى من التيارات الحزبية

(1) السيد موسى الصدر كان أول من نقل كتب شريعتي ومحاضراته إلى اللغة العربية، وأول كتاب كان الشهادة والذي قمنا بإعادة نشره هذا العام ولكنه ـ السيد موسى الصدر ـ رفض حينها وضع اسمه على الكتاب كمترجم أو معرّب (الناشر).

الأخرى. يعني الجامعة كانت بيدهم، والتأثير الإسلامي كان عميقاً في المجتمع الإيراني، حتى أن الشيوعيين استسلموا للحكم، وبقيت الحركة الإسلامية تقاوم وتدافع وتناضل.

الدكتور شريعتي، من خسائر الفكر الإسلامي، والفكر الحركي، الفكر النضالي المعتمد على الإيمان بالله سبحانه، ولذلك نحن نعتبر، فقدنا وخسارتنا، ونكرّمه في هذا اليوم، يوم علي، مولاه ومولانا، ونبعث إلى روحه أيضاً، ثواب الفاتحة)[1].

(١) مسيرة الإمام الصدر. الجزء ١١ ص١٥٤ ـ ١٥٥ إعداد وتوثيق يعقوب ضاهر. دار بلال ـ ط١، سنة ٢٠٠٠.

الشهيد الدكتور مصطفى شمران[1]

رفيق الإمام موسى الصدر في لبنان
واول وزير دفاع بعد انتصار الثورة

... وأنت أيها الرب الكبير قد منحتنا (علي) لتعلمنا طريق

(١) بعد إنتفاضة الشعب الإيراني المسلم في (٥/٦/١٩٦٣م)، ذهب الشهيد مصطفى شمران(ره) إلى مصر (في عهد الرئيس جمال عبد الناصر) لتلقي تدريبات على حرب العصابات، وبعد إنهائه لتلك الدورة التدريبية أخذ على عاتقه تدريب المجاهدين الإيرانيين خارج البلاد. ونظراً للموقع الاجتماعي الذي يتميز به لبنان، فقد وجد في جنوب لبنان منطقة مناسبة لنشاطاته والتي شارك فيها العديد من قادة ورجال الثورة ومنهم نجل الإمام الخميني(رض) السيد أحمد الخميني(رحمه الله)، وتمكن مع الإمام الصدر (أعاده الله) من تأسيس «حركة المحرومين» والتي سميت فيما بعد بـ«حركة أمل».

عاد إلى إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية، فوضع حجر الأساس لمؤسسة حرس الثورة الإسلامية من خلال تدريب أول مجموعة من الحرس. كما انبرى عن طريق تولي منصب مساعد رئيس الوزراء لشؤون الثورة، لحل المشاكل التي كانت تواجه النظام الإسلامي. عيّنه الإمام الخميني شخصياً وزيراً للدفاع.

إنتخب نائباً عن طهران في إنتخابات أول دورة لمجلس الشورى الإسلامي، ثم عيّنه الإمام الخميني ممثلاً عنه في مجلس الدفاع الأعلى.

العشق والفداء وطريقه، ليحترق كالشمع وينير لنا الدرب، وها نحن نقدمه لك كأفضل هدية ليستقر عندك ويبدأ حياته الخالدة في ملكوتك الأعلى.

قسماً بالعدل والعدالة، أنك - علي شريعتي - كالموج المتلاطم تغلي في نداءات المظلومين ضد الظالمين ما دام الظلم والإضطهاد يُقل كاهل البشر[1].

وقام بتأسيس قيادة حرب العصابات في مدينة الأهواز عند بدء الحرب مع العراق، جرح في ميدان الحرب عام ١٩٨٠م، ثم عاد الى الجبهات بعد شفائه.
استشهد في ٢١ حزيران عام ١٩٨١م عند إصابته بشظية قذيفة مدفعية في جبهة الحرب بمنطقة الدهلاوية. (الناشر).

مقدّمة الطبعة الفارسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الهدف من نشر هذه السلسلة هو أن نقوم - بعون الله - بتحرير وطباعة كلّ نتاجات الاستاذ الشهيد الدكتور علي شريعتي، المسموعة فيها والمقروءة، سواء نشرت من قبل أم لم تنشر بعد، وذلك بأسلوب يتوخى الدقة والأمانة ويأخذ بعين الاعتبار جميع التعديلات والآراء التي استحدثت لديه دون أدنى تصرف في ما هو المأثور عنه.

ومن هنا، فإن جميع كتابات وخطابات الاستاذ الشهيد والتي طبعت بلا اشراف منه، سوف يصار إلى اعادة طبعها بعد مطابقتها مع الأشرطة والمذكرات الأصلية، مراعاة للأمانة العلمية وتفادياً لحصول سوء فهم أو توظيف.

نسعى إلى تبويب المطالب ونشر ما كان منوزعاً على كراسات صغيرة أو متوسطة، في كتاب واحد وتحت عنوان واحد، محققين بذلك أحد أماني استاذنا الشهيد «تراجع لهذا الغرض وصيته المنشورة في سلسلة الآثار - العدد ١».

كل كتاب أو مجلد سوف يتضمن في آخره فهارس شاملة للأعلام والأمكنة والمصطلحات والمفاهيم. ان مهارة وحنكة استاذنا

الشهيد في استخدام المفاهيم والمصطلحات الموجودة في تراثنا الاسلامي الايديولوجي وأيضاً في الثقافات والمدارس الفكرية الأخرى، هو احدى الباقيات الصالحات لاستاذنا الشهيد، وبالتالي فإن التمعّن في هذا المجال يعدّ امراً ضرورياً لمن يريد أن يوفق الى التعرف على أفكار هذا الرجل الكبير واستشراف متبنياته الفكرية والعقائدية والتوريثية، والاستفادة من هذا الرصيد التربوي الغني.

يشار الى اننا قد نورد بعض الإشارات مدعومة بذكر مصادرها، فيما اذا اقتضت الضرورة، وذلك في قسم الملاحق.

جدير بالتأكيد والملاحظة ان الملاحق تمّ اعدادها من مكتب النشر، وعليه فهو يتحمّل مسؤولية كل الأخطاء والهفوات والقصور الذي يمكن ان يسجّل عليها.

على أمل أن يعثر طلاب الحق وأصحاب الفكر الحرّ الملتزم في هذه السلسلة على أسلم نتاجات الاستاذ الشهيد وأكثرها نقاء وأصالة.

ملاحظات الناشر

يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أقسام أصلية وقسم رابع خاص بالملاحق يتألف بدوره من أربعة مواضيع.

أما الأقسام فهي كالتالي وحسب الترتيب:

١ ـ الدين ضد الدين ـ وهو عبارة عن محاضرة في ليلتين

متواليتين ألقاهما الاستاذ الشهيد في صيف ١٩٧٠ م في حسينية الارشاد بطهران. وقد تم تحويل هذه المحاضرة الى نص مقروء في حينها وباشراف من الاستاذ نفسه. ومن هنا فقد أجرى المكتب مقارنة بين النص المحرّر والكلام الموجود على الشريط واكتفى باجراء بعض التعديلات الضرورية.

٢ ـ أبتاه، أماه، نحن متهمون ـ وهذا القسم هو في الأصل محاضرة أيضاً ألقيت خريف عام ١٩٧١ م في حسينية الارشاد أيضاً، بعدها اجرى الاستاذ بنفسه تعديلات وأضاف لها اموراً أخرى ونشرت سابقاً على هيئة كتاب.

٣ ـ نعم، هكذا كان يا أخي ! ـ هذا القسم محاضرة أُخرى ألقاها الدكتور الشهيد خريف العام نفسه (١٩٧١ م) وفي نفس المكان (حسينية الارشاد بطهران)، ومن ثم أدخل عليها اضافات وتعديلات وجاءت توضيحاته على متن المحاضرة المحرّر.

٤ ـ الملاحق، وتتألف من الأمور التالية:

الف : توينبي، الحضارة والدين ـ وهي عبارة عن حوارية كتبها الاستاذ بنفسه، ويبدو انه أعدّها في ضوء حوارات جرت بينه وبين توينبي في مشهد. ومما يلزم ذكره ان هذه المقالة تطبع لأول مرة، وتاريخ كتابتها غير معلوم.

ب : وداعاً يا مدينة الشهادة ـ وهي مقالة كتبها الدكتور في أواخر

شتاء ١٩٧٢ م بعد ان حرم من مواصلة التدريس في جامعة مشهد.

ج : لولا البابا وماركس ـ مقالة منه لا يعرف تاريخ تحريرها.

د : ندوة للإجابة عن الأسئلة والاشكالات؛ وهذه الندوة كما يظهر من اسمها عبارة عن مجموعة اجوبة عن اسئلة واستفسارات وانتقادات موجهة الى حسينية الارشاد بنحو عام والى شخص الاستاذ شريعتي على الخصوص، وتتألف من قسمين، الأولى انعقدت بتاريخ ١٤ / ١٢ / ١٩٧١ م وتحدث فيها اشخاص آخرون ممن لهم نشاط في الحسينية، وحيث ان الحوارات مترابطة، آثرنا ايراد كلمات بقية المشاركين في الندوة الأولى مع ايراد اسمائهم.

في الختام، يشار الى النقاط التالية:

١ ـ في كل مورد نضطر فيه لإضافة عبارة ربط أو توضيح فاننا نضعها بين حاصرين من نوع [ ].

٢ ـ في الموارد التي يتعذر علينا تشخيص كلمة (من مقال أو شريط) أو حتى حدسها يصار الى وضع العلامة التالية: "... ؟".

مكتب تدوين وتصنيف

سلسلة نتاجات الشهيد الدكتور علي شريعتي

آذار / ١٩٨٢ م

كلمة بخصوص الترجمة

١ ـ بالنسبة للقسم الثاني من الكتاب أي محاضرة (أبتاه أماه نحن متهمون) فلم نقم بترجمته في هذا الكتاب لأنه مترجم ومنشور من قبل، وسيصدر عن دار الأمير بكتاب مستقل.

٢ ـ عزفنا عن ترجمة القسم الأوّل من الندوة الواردة في الكتاب لاشتماله على أقوال وكلمات أفراد آخرين، ولم تكن هناك ضرورة ملحة لايراد كلام الاستاذ الشهيد فيها، وذلك ان الندوة الثانية التي خصصت للاستاذ وحده تكاد تكون مشتملة على كل ما أورده في الندوة الأولى فلم نر داعياً لتطويل المسافة على القارئ.

٣ ـ من المناسب التنويه الى ان الكتاب يشتمل على أقسام متباينة من حيث الأصل فبعضها محاضرة وبعضها مقالة وبعضها حوار في ندوة، الأمر الذي قد ينعكس على أسلوب الكلام وبالتالي الترجمة، لذا اقتضى التنويه.

المترجم

الدين ضد الدين

موضوع حديثي لهاتين الليلتين هو (الدين ضد الدين).

وربما يبدو هذا العنوان غامضاً، وهذا الغموض ناجم عن قناعة عامة لدينا بأنّ الدين كان دائماً ضد الكفر، وان المعركة استمرت تاريخياً بين الدين واللادين، فيكون التعبير بـ(الدين ضد الدين) منطوياً على قدر من الغموض والغرابة والاستنكار، بينما قد توصلت اخيراً ـ وربما من قبل ولكن ليس بهذا المستوى من الوضوح ـ الى ان الحقائق التاريخية تؤيد عكس التصور الآنف الذكر وان الدين لم يكن يواجه إلّا بالدين، خلافاً للتصور الساذج الذي نحمله اليوم.

بدءً اشير الى ان الحديث عن التاريخ هنا لا يراد منه المعنى الاصطلاحي الشائع والذي يعبّر به عادة عن تاريخ ظهور الحضارة أو اختراع الكتابة. بل أقصد بداية الحياة الاجتماعية للنوع الانساني على وجه الأرض. وفي ضوء ذلك فان التاريخ الذي اتحدث عنه تعود بداياته الى ثلاثين أو أربعين وربما خمسين الف سنة، بينما التاريخ بمعنى بداية المدنية واختراع الخط لا يتعدى قدم ستة آلاف عام. والتاريخ بالمعنى المختار يشتمل على دراسة الآثار القديمة وعلم

الأرض والاجتماع والبحث في القصص والاساطير القديمة بما يوفر لنا علماً اجمالياً حول حياة الانسان بأجياله الأولى ومنهجه الحياتي والعقيدي.

فعلى مدى هذا التاريخ الذي قلنا ان بداياته وصلت الينا عبر الحكايات والأساطير وكلما اقترب الزمن نحونا أصبح في متناول أيدينا مستندات ووثائق بشأنه، كان الدين هو العدو اللدود المناوئ للدين السائد. وذلك أن المجتمعات البشرية في جميع مراحلها لم تخل من دين ابداً، اي ان التاريخ لم يحدّثنا عن مجتمع عاش بدون دين، في أي مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي، وفي أي نقطة على وجه الأرض.

صحيح، اننا ربما نصطدم في القرون المتأخرة ـ حيث نمت مظاهر المدنية والفكر والفلسفة ـ بأشخاص ينكرون وجود الخالق أو المعاد، غير ان هؤلاء الاشخاص لم يحدث في وقت من الأوقات ان يرتقوا الى مستوى طبقة او فئة اجتماعية معتدٍّ بها. وحسب قول كارل: (فإن التاريخ ضمّ بين دفّتيه مجتمعات عاشت وانقرضت ولكن هذه المجتمعات كانت ذات نظم دينية بشكل عام).

انّ المحور الذي يقوم عليه مجتمعٌ مّا، هو ايمانه الديني ومعتقداته المذهبية، حتى ان المظهر الخارجي للمدن يعكس حقيقة الوضع الروحي للمجتمع الموجود فيها.

خلال القرون الوسطى، وقبل ظهور المسيح، كانت المدن في الغرب وفي الشرق تتألف من مجاميع من الدور والمباني تبنى على نسق معيّن وبالاستناد الى معايير طبقية أو قبليّة بحيث يكون لكلّ قبيلة أو طبقة، محلة محدّدة تقترب أو تبتعد عن مركز المدينة حسب المكانة الاجتماعية التي تتمتع بها تلك القبيلة أو الطبقة، وعلى أي حال فان قاسماً مشتركاً يمكن ملاحظته في المدن المتحضرة، شرقية كانت أو غربية، كونها تحمل طابعاً رمزياً، أي ان نظم المدينة لا يكون اعتباطياً بل ينطوي على دلالات معينة، وفي الغالب يتمّ ابراز هوية المدينة من خلال طريقة بناء معبدها. طبعاً هذه الحالة أخذة بالزوال والانقراض هذه الأيام. فمدينة طهران مثلاً ليس لها طابع رمزي، بمعنى ان طريقة تنظيم مبانيها وشوارعها لا تستند الى محورية معينة، لا دينية ولا غير ذلك. بينما روعي هذا الأمر في بناء مدينة مشهد، إذ لو اخذنا للمدينة صورة جوية، سوف يتجلى فيها بوضوح الطابع الرمزي للمدينة، حيث تظهر البنايات فيها وكأنها تتمحور حول شمعة في الوسط، وهذه الشمعة ترمز الى هوية المدينة وتمثل بطاقتها الشخصية.

والسؤال الذي يطرح الآن، لماذا كان بناء المدن يتم بهذه الطريقة الرمزية؟ والجواب واضح، فإنّ أي حضارة أو دولة أو مدينة لم تكن تقوم في السابق إلاّ على أساس ومرتكز ديني. بمكنكم ملاحظة جميع الكتب الموجودة لدينا حول تاريخ نشوء المدن مثل: (تاريخ قم)

و(تاريخ يزد) و (فضائل بلخ) و(تاريخ بخارى) و(تاريخ نيسابور) وغيرها ... ستجدون ان جميع تلك الكتب تتفق على ارجاع ظهور المدينة الى وازع ديني أو مناسبة مذهبية، كأنّهم غير قادرين على التصديق بأنّ مدناً كبيرة كهذه يمكن أن ترى النور دون ان يكون وراء ذلك عامل ديني أو معنوي، فلابدّ من وجود نبي مدفون في المنطقة التي توجد فيها المدينة، أو شخصية دينية صالحة، أو حتى واقعة دينية من ظهور معجزة او غيرها. خلاصة الأمر انه لا بدّ من افتراض مبرر ديني وعقيدي لوجود مدينة أو نشوء كيان حضاري. وهذا يكشف عن حقيقة مفادها ان المجتمعات الانسانية القديمة، وعلى اختلاف انواعها وانماطها، كانت تأتلف على أساس عنصر مشترك هو (روح الدين) الموجودة في ضمير الانسان القديم مهما كان نوع المجتمع الذي ينتمي اليه، طبقياً أو قبلياً، حضرياً أو بدوياً.

وفي ضوء ذلك فان ما نفهمه اليوم من كلمة (الكفر) من عدم الاعتقاد بما وراء الطبيعة والله والمعاد والغيب والمقدسات، ليس له واقع موضوعي، وذلك أن جميع ابناء البشر متفقون على الايمان بهذه المبادىء والأصول العامة. واما المعنى الذي نفهمه اليوم من (الكفر) بمعنى اللادين فهو معنى مستحدث وطارىء، ويعود الى القرنين أو الثلاث قرون الأخيرة، أي فترة ما بعد القرون الوسطى، وهو معنى قام الغرب بتصديره الى الشرق كبضاعة فكرية، في ضوئها أصبح الكفر

بمعنى عدم الاعتقاد بالله وبكلّ ما وراء الطبيعة والعالم الآخر، بينما اذا ألقينا نظرة على تاريخ الاسلام ونصوصه القديمة بل تاريخ جميع المذاهب والاديان يتضح لنا انه متى ما جرى الحديث عن الكفر فليس يعنون بذلك الحالة اللادينية، وذلك انّ حالةً كتلك لم يكن لها وجود أصلاً.

وعليه فالكفر هو نوع من الدين أيضاً، يطلقه أهل الأديان عادة على من لا ينتحل نحلتهم ولا يدين بدياناتهم. ولهذا قد نقابل الإطلاقات ما بين أهل ديانتين فيعتبر كلٌّ منهم الفريق الآخر كافراً.

والحاصل انه متى ما ظهرت دعوة دينية، سواء على صعيد تاريخ الأديان الابراهيمية أو على صعيد المذاهب الغربية والشرقية وبأي نحو كانت، فهناك قضيتان اساسيتان :

الأولى: ان هذه الدعوة الدينية تظهر على رغم وجود الديانة السابقة بل لمواجهتها.

والقضية الثانية: ان الديانة القديمة وأهلها سوف يكونون أول من يشنّ الحرب ويعلن المواجهة ضد القادم الجديد.

وحينئذ فنحن الآن بإزاء قضية في غاية الأهمية، من شأنها ان تحلّ أهم المشكلات المعاصرة على صعيد إصدار الأحكام بواسطة الشخصيات المستنيرة في عالمنا هذا، وتسهم في التحليل العلمي

والتاريخي لأخطر حكم أصدره المستنيرون حول الدين، والقاضي بأن الدين يتنافى مع الحضارة والتقدّم وارادة وحرية الشعوب، أو هو في أحسن الأحوال غير قادر على مواكبة هذه الأمور.

وهو حكم لم يأت جزافاً بل على أساس مفردات واقعية وأرقام علمية وتجارب تاريخية متكررة. ان هذا الحكم ليس حكماً تعسفياً ناجماً عن حقد وكراهية أو جهل مطلق، وانما هو حكم مستند الى مبررات علمية ومشاهدات عينية ووقائع اجتماعية وتاريخية مدعومة بأدلة وأرقام.

ومع ذلك، فأنا اعتقد ان هذا الحكم غير صائب، وذلك لأن أصحابه وقعوا في الخطأ ذاته الذي وقعنا نحن ـ أنصار الأديان ـ فيه، وذلك في عدم الفرز بين الدينين، وتخيّل المواجهة بين الدين واللادين، فتميل اولاً الى اثبات الدين بشكل اجمالي عام ومن ثم ننتقل الى اثبات ديننا بشكل خاص، وهذه منهجية خاطئة في البحث. هذا الخطأ وقع فيه المناهضون للأديان في اوربا في القرنين الأخيرين خاصة القرن التاسع عشر حيث بلغت فيه موجة المناهضة للدين أوجها في اوربا. والسبب عدم قدرتهم على الفرز بين شكلين من الدين مع شدة الاختلاف بل والتناقض والتخاصم الدائر بينهما على الدوام، وبالتالي اصدروا حكمهم بناء على وقائع وأرقام حسّية وواقعية لمسوها من خلال النمط القائم من الدين، وحيث لم يكونوا قادرين على ادراك النمط الآخر

عمّموا الحكم على الدين بمطلق اشكاله دون ان يشعروا بأن الحكم الذي أصدروه ينطبق على نصف الحقيقة ويهمل نصفها الآخر، بل ويتجنّى عليه، وذلك لأنه ثمة نمط آخر من الدين يختلف اختلافاً جوهرياً عن النمط الذي اصطدموا به وبممارسات أتباعه، وهذا الاختلاف ينسحب على جميع خصائص وصفات كل نمط بحيث لو أردنا اثبات صفة لأحدهما تعيّن نفيها عن الآخر.

وأود الاشارة هنا الى نقطة في غاية الأهمية، وهي انني ربما ألجأ الى استخدام نفس المصطلحات المتداولة بيننا، ولكن اعني منها معنىً غير المعنى الرائج والشائع. لذا أرجو من الأخوة أن لا يسارعوا الى فهم المصطلحات وفق ما هو مرتكز في اذهانهم ومن ثم يصدروا أحكامهم على خلاف المعنى الخاص بي والذي أريده من الاصطلاح الوارد في كلامي، وسوف ألجأ الى تحديد المفاهيم التي أعنيها من المصطلحات التي اكثر استخدامها، تجنباً من وقوع لبس او خلط بين معنيين متغايرين تماماً. وهذه الاصطلاحات هي: الكفر والشرك وعبادة الأوثان.

الكفر

الكفر بمعنى الستر والتغطية، وهو من الزراعة حيث تزرع الحبة

ومن ثم تغطى بالتراب. ووجه الاقتباس ان الكافر يغطي على الحقيقة الناصعة في قلبه لأسباب وعلل كالجهل والانتهازية. والكفر ليس بمعنى تغطية الدين باللادين بل بمعنى تغطية الدين بواسطة دين آخر.

الشــرك

هل يعني الشرك عدم وجود الإله؟ كلّا، اذ المشركون لهم آلهة أكثر منا! المشرك ليس هو الشخص الذي لا يؤمن بالله اذ لا وجود لشخص كهذا.

ومن المعلوم ان الذين وقفوا بوجه عيسى وموسى وابراهيم هم مشركون وليسوا ملحدين. فمن هم المشركون اذن؟ بالطبع ليسوا اشخاصاً لا يؤمنون بالرب، بل على العكس هم فئة يؤمن افرادها بأرباب كثيرين، وعليه لا يمكن من الناحية العلمية اطلاق وصف المشرك على افراد عديمي الاعتقاد الديني، وذلك لأنّ المشرك يعتقد بوجود معبوده بل اكثر من معبوده وهو يؤمن بمعبوديته لهذا المعبود ويعتقد بتأثيره في مصيره ومصير العالم الذي يعيش فيه، وهو يمتلك نظرة الهية مثلما لدينا تلك النظرة.

وعليه فمن الناحية الحسّية يعدّ المشرك انساناً متديناً وان اخطأ الهدف من حيث المصداق وسلك طريقاً مغلوطاً. وواضح ان الدين

الغلط شيء واللادين شيء آخر يختلف عنه اختلافاً جوهرياً. وحينئذ يمكن القول ان الشرك دين، بل هو أقدم انواع الأديان في حياة المجتمعات البشرية.

عبادة الأوثان

ان عبادة الأوثان لون خاص من ألوان الشرك، وليس شيئاً مرادفاً للشرك فالشرك عنوان لدين معروف على طول التاريخ، وعبادة الأوثان كان شكلاً من أشكال هذه الديانة في احدى مراحلها التاريخية. ولك ان تقول ان عبادة الأوثان هي فرقة من فرق الشرك يتميز اتباعها بأنّهم يصنعون التماثيل والأصنام إمّا لكي يعبدوها أو لكي يتقربوا بها الى المعبود الأصلي ويعتبروها واسطة بينهم وبينه، وعلى اي حال فانهم يؤمنون بأنّ له قدرة تأثير على مجرى الحياة بشكل أو بآخر.

غير ان القرآن عندما يهاجم (المشركين وعبدة الأوثان) وينتقدهم يستفيد من الفاظ عامة وذلك تحسّباً من ايقاع الناس بالخطأ الذي وقعنا الآن فيه ولكي لا يُفهم من القرآن ان الاسلام قام لمواجهة خصوص هذا النمط من الشرك بالله ـ نمط عبادة الأوثان ـ بل ان النهضة الدينية التي قادها النبيّ تستهدف الاطاحة بكل مظاهر الشرك مهما كان

شكله ولونه. شأنه في ذلك شأن سائر الأديان والحركات التوحيدية.

اننا نقع في وهم كبير عندما نتصور ان الطرف المقابل لنا (دين الشرك) يتجسد في شكل واحد هو عبادة الأصنام، في حال ان قوله تعالى: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ يستبطن ـ بنفسه ـ الردّ على هذا التوهم الابتدائي، وذلك اننا لو راجعنا التاريخ بطوله والجغرافيا بعرضها نجد ان البشرية لم تقتصر على نحت الصخر ومن ثم عبادته، بل نحتت لها مختلف الأمور، مادية أو غير مادية، ثم تعلّقت بها الى حدّ العبادة، وهذه ظاهرة انسانية عامة عانت منها المجتمعات البشرية وتعاني الى الآن بصور مختلفة، بشكل عبادة الأوثان نموذجاً منها طُبّق وما زال يطبق في بعض المجتمعات الجاهلية العربية والأفريقية.

﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ عبارة عن مبدأ عام يتضمن تعريفاً شمولياً لأسلوب العبادة في دين الشرك، ذلك الدين الذي ظل يواكب دين التوحيد خطوة بخطوة على مرّ التاريخ، ولم يتوقف او ينقرض لا في عصر النبي ابراهيم ولا بعد ظهور الإسلام، بل ما يزال قائماً وسيبقى.

خصائص دين الشرك

(هذا بحث في تاريخ الأديان، وسوف أبذل سعيي لاستخدام

مصطلحات مألوفة ومتداولة على صعيد الاسلام وتراثنا الأدبي).

في احد خندقي المواجهة يقف دين التوحيد وعبادة الله. الله بمعنى العلم والارادة والخالقية والتدبير، هذه هي صفات الرب في جميع الأديان الابراهيمية. الخالق لأنه خلق هذه العالم بأسره، والمدبّر لأن حركة هذا العالم تجري بإرادته. وهو مريد له مطلق الحرية في الحكم على الوجود، وعالم لأنه يشرف اشرافاً تاماً على كل ما في الكون. في الوقت نفسه فان هذا الربّ حدّد هدف الخلقة وغاية وجود العالم، ولقد كانت عبادة هذه القوة المطلقة تمثل الشعار الأعلى الذي رفعته جميع الأديان الابراهيمية، وعرف به ابراهيم شخصياً، وهذا الشعار يعني دعوة جميع بني البشر الى عبادة قوة واحدة نافذة في الوجود، والسير نحو هدف واحد للخلقة، والايمان بوجود قدرة واحدة مؤثرة في كافة انحاء الوجود والاستناد اليها في جميع مناحي الحياة.

التوحيد

ان الدعوة المعروفة تاريخياً بدعوة التوحيد، لها بعد مادي يرتبط بهذا العالم، ويتمثّل بأنّ من يؤمن بأن هذا الكون بأسره مخلوق بواسطة قوة واحدة، وان هناك قدرة واحدة تتحكم بأطراف هذا الوجود من مجتمع انساني أو حيواني أو نباتي أو حتى الجمادات، دون أن يؤثر في هذا الوجود شيء آخر، آنذاك يكون من شأن هذه الرؤية التوحيدية

الالهية ان يكون لها انعكاس على صعيد الحياة الانسانية، لأنّ من يؤمن بأنّ الكون عبارة عن امبراطورية واحدة يحكمها مصدر وقوة واحدة، وان البشر خاضعون لإرادة واحدة وينتمون الى جنس واحد ولهم اله واحد تضمحل أمامه كل الوجودات والمظاهر والقوى الأُخرى، ان من يؤمن بذلك سوف ينظر الى هذا العالم نظرة كلية يراه من خلالها كأنه جسد واحد تتحكم فيه روح واحدة، وحين ينظر الى البشر يراهم افراداً متساوين ومتماثلين لأنهم خلقوا بيد واحدة وعلى وتيرة واحدة.

هذا الدين التوحيدي هو أحد الديانتين اللتين اشرت لهما، وهو يقوم على اساس عبادة رب واحد والايمان بقوة واحدة متنفذة في مصير المجتمعات الانسانية على طول التاريخ. وكما قلت فإنّ من لوازم توحيد الإله توحيد العالم ومن لوازم توحيد العالم توحيد الانسان.

من جهة أخرى فان هذا الاعتقاد البشري يمثل ميلاً فطرياً نحو عبادة القوة الواحدة والايمان بالقداسة ـ بحسب تعبير دوركايم[1] ـ أو الايمان بالغيب بالتعبير القرآني. والدليل على فطرية هذا الاعتقاد

(١) دوركايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧)، عالم اجتماع فرنسي معروف، كان استاذاً في جامعة السوربون، كان دوركايم يعتقد أنّه يتعيّن على علم الاجتماع أن يدرس المجتمع كنوع خاص من الواقع الروحي، تختلف قوانينه عن قوانين علم النفس الفردي. له عدّة مؤلفات منها: «حول تقسيم العمل الاجتماعي»، «قواعد المنهج في علم الاجتماع»، «الأشكال الأوّلية للحياة الدينية». انظر: الموسوعة الفلسفية، ص ٢٠٠. (المترجم)

وفطرية كل اعتقاد آخر هو دوام هذا الشعور وشموليته لجميع الافراد لجميع الأزمان ما يدلّ على أنه امر غريزي. ولو أردنا ان نستقصي في اعماق التاريخ لما وجدنا أمة عاشت بلا دين ولا عبادة.

انّ هذا الشعور والحس التعبدي الملموس في هذا الدين يترجم الى معرفة بهذه القوة المشرفة على العالم، وبالتالي التعرف على العالم كموجود حيّ قادر حساس له ارادة وغاية وهدف. مضافاً الى ان هذا الشعور التعبدي التوحيدي سوف يتجلّى تاريخياً في واقع اعتقاد بوحدة البشرية بشتى ألوانها وأقوامها وطبقاتها وأعراقها. ومن ثم وحدة الحق والقيمة والمنزلة.

وعلى الخط الآخر، سيقود دين الشرك أصحابه الى نتيجة معاكسة فيتحول الشرك في كل حقبة زمنية الى عدوّ لدود لأديان التوحيد يهاجمها او يقاومها ويحول دون اتساع الرقعة الجغرافية او السكانية التي تمتدّ عليها.

لا توجد فرصة للتطرق الى تاريخ الأديان بتفصيل يستعرض مفردات وحقائق هذا الموضوع بشكل تام، غير أن بمقدورنا بحث دين الشرك من خلال دعوات الأنبياء العظام، وفي هذا السياق تؤكد لنا القصص الواردة في التوراة والكتب المرتبطة بها وكذلك قصص القرآن والروايات ان أعتى قوة جابهت رسالة النبي موسى وألحقت بها أشد الضربات هي حركة (السامري) و(بلعم بن باعورا).

السامري

بعد نجاح موسى في إقناع قومه بالتوجه لعبادة الله الأحد وهجر عبادة الأوثان والعجل والوجودات الأسطورية التي كانت تمثل جميعاً مظاهر لدين الشرك آنذاك، في ذلك الوقت ظهر السامري ليحيي من جديد سنّة عبادة العجل بأن اغتنم فرصة غياب موسى عن قومه فصنع لهم عجلاً ودعاهم لعبادته.

ذلك الرجل الذي نحت عجلاً بغية أن يعبده بنو اسرائيل بدلاً من (يهوه) و (الله) لم يكن إنساناً لا دين له، بل على العكس كان مبلّغاً للعقيدة وداعية للدين!

بلعم بن باعورا

هل كان هذا الرجل فيلسوفاً مادياً أو ملحداً دهرياً أو شخصية مثل مترلينغ أو شوبنهاور[1]؟ كلا، بلعم بن باعورا كان صاحب أعلى مقام ديني في زمانه، وكان كعبة المتدينين وعموم الناس في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد نهض لمعارضة دعوة موسى النبي مستغلاً إيمان الناس

(1) آرثر شوبنهاور، فيلسوف ألماني، ولد عام ١٧٨٨، وتوفي عام ١٨٦٠، من أشهر كتاباته «العالم كإرادة وكتصور». (المترجم).

وثقتهم به، ما أدّى الى انزال ضربات مؤثرة بدين التوحيد ورسالة موسى.

الفريسيون

انظروا الى عيسى! من كان سبب معاناته الطويلة والمصائب التي ظل يتعرض لها الى اللحظة الأخيرة، و -بزعمهم- الإبادة التي تعرض لها، وغير ذلك من الممارسات الخيانية والتهم والافتراءات التي وجهت اليه والى أمه؟ من كان وراء ذلك سوى الفريسيين: أتباع وأنصار الدين القائم في ذلك الزمان، لم يكونوا ماديين ولا زنادقة ولا دهريين، بل هم أناس ظلوا يعتقدون بدين الشرك الذي جاء عيسى لاجتثاث جذوره.

• مشركو مكة

وانظروا الى نبي الاسلام، فهل كان الاشخاص الذين عقدوا لواء المعارضة والمناوءة له وسلّوا سيوفهم عليه في بدر وأحد وهوازن والطائف ومكة، هل كانوا يدون دين أو لم يكن لهم حس ديني؟ كلا! لا يمكن العثور على شخص بينهم كان بهذه المواصفات، كانوا جميعاً أصحاب عقيدة، حقيقةً أو ادعاءً، وكان شعارهم القضاء على النبي، على

محمد بن عبد الله وأتباعه، بذريعة انتهاكهم لحرمة بيت ابراهيم، ولأنهم صبأوا عن دين آبائهم وخرقوا الأصول والمقدّسات. انهم يريدون القضاء على هذه الأرض المقدسة (مكة) وتحطيم الأصنام التي هي الواسطة بين الله وعباده. وعليه فالشعار الذي رفعته قريش والعرب من ورائها ضد الاسلام والنبي هو شعار الدين ضد الدين.

ومن بعد النبي، استمر هذا الشعار يرفع ولكن بشكل مختلف، هذه المرة بوجه عليّ واتجاهه الذي كان يحمل روح الاسلام الحقيقي ويسعى للحفاظ عليه. من الذي واجه عليّاً؟ هل هم الكفار ومن لم يكن لهم دين، وهل كان الشعار المرفوع يدعو الى انكار وجحود الله، أو ان الاعتقاد بنمط آخر من الدين في مواجهة النمط الأصيل، هو الذي أدى الى نشوب المعركة ـ تاريخياً ـ بين آل النبي وآل أمية ومن بعدهم آل العباس.

ان عبادة الله هي أبرز خصائص هذا الدين الابراهيمي ـ وانما اصطلح عليه بالابراهيمي كيما يتسنى لكم فهمه بوضوح ـ . فعلى مرّ التاريخ كان ثمة دين توحيدي يدعو الى عبادة معبود واحد هو خالق كل الكون والمهيمن على كل شيء فيه وهو الذي يرسم الطريق للبشرية جمعاء ويحدّد هدف التاريخ ويصوغ القيم الإنسانية على معيار محدّد. وهذا الدين يقف بوجه كل الحركات الداعية لعبادة الطاغوت من لدن آدم الى النبي الخاتم والى نهاية المطاف البشري. وبدورهم يقف عبدة

الطاغوت ـ على اختلاف أصنافهم ـ بمواجهة هذه الحركة الاعتقادية التي تدعو الانسان الى الانقياد لنواميس الكون الكبرى والتسليم بإزاء الإرادة الإلهية الحقة التي رسمت طريق الخلقة وحدّدت لها هدفها العظيم وغايتها القصوى متمثلة بالله! هؤلاء العبدة لا يألون جهداً بالوقوف بوجه دعوة كهذه اسمها (الاسلام)[1] ويتعمّدون وضع العراقيل في طريق أهدافها.

بيد ان هذا الدين الذي يدعو الى الانقياد المطلق لإرادة الرب، هو ـ في الوقت ذاته وللسبب ذاته ـ يدعو الى الثورة والطغيان على كل ما سواه. وكل خطاب فيه الى عبادة الله يتجرّ تلقائياً الى نبذ عبادة الطاغوت. وعلى الجانب الآخر يحصل الشيء ذاته مع دين الشرك حيث يدعو اتباعه الى الطغيان بوجه ناموس الكون الاعظم والتمرد على الإرادة الالهية ورفض دعوة الاسلام وذلك امتداداً لدعوته الى عبودية القوى والأقطاب الأخرى التي تجسّد بنفسها مفهوم الآلهة المتعددة.

الشرك يعني الطغيان على العبودية لله، ولكنه في نفس الوقت يعني العبودية والتسليم للأصنام (بمعناها الشامل لكلّ ما يتخذه البشر آلهة زوراً وتزويراً بمعونة جهل الناس وظلم الحاكمين). ان عمل

(١) القرآن يصرّح بأنّ الاسلام هو اسم لجميع الأديان الحق. ﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾.

الطاغوت يتجلى في الطغيان بوجه القوة العظمى المهيمنة على عالم الكائنات، وأيضاً في التسليم بوجه (ما تنحتون). وهذه الـ(ما تنحتون) شاملة لكل ما من شأنه ان يكون صنماً يعبد من لاتٍ وعزى أو ماكنة ورأسمال أو دم وعرق، ان هذه جميعاً نماذج تطبيقية لمفهوم الطاغوت الذي يقف في مواجهة الله.

ومن خصائص دين التوحيد أيضاً الطابع النقدي الهجومي الثوري الذي يتصف به، وذلك في مقابل الطابع التبريري الذي يشكل السمة الاكثر بروزاً من بين السمات الأخرى لدين الشرك بمفهومه الأوسع.

ماهية الدين الثوري

الدين الثوري هو دين يغذّي اتباعه ومعتنقيه برؤية نقدية حيال كل ما يحيط بهم من بيئة مادية أو معنوية، ويكسبهم شعوراً بالمسؤولية تجاه الوضع القائم يجعلهم يفكرون بتغييره ويسمون لذلك فيما لم يكن مناسباً.

ان السمة الاساسية لهذا الدين ـ الدين التوحيدي ـ انه يتفادى تبرير الوضع القائم تبريراً دينياً ولا يؤمن بمبدأ الرضوخ للأمر الواقع أو اتخاذ موقف اللامبالاة حيال ما يحيط به. لاحظوا حركة الأنبياء،

سوف يتضح لكم ان الاديان التوحيدية، خاصة في مراحل ظهورها الأولى أي فترة نقائها عن الشوائب والتحريف، تتسم عادة بطابع رافض للوضع القائم ونزعة ثورة وتمرد على كل جور وفساده وهذا التمرد والطغيان يأتي متصاحباً مع العبودية والخضوع لموجد الكون، والانقياد لقوانين الوجود التي تتجلّى فيها الارادة والقدرة الإلهيتان.

أمعنوا النظر في جميع الأديان، موسى مثلاً نهض ثائراً بوجه الاقطاب الثلاثة: قارون اكبر رأسمالي في زمانه، وبلعم بن باعورا ممثلاً لأكبر شخصية دينية انحرافية، وفرعون الذي بيده القدوة السياسية لذلك العصر.

والآن ما هو ذلك الوضع الموجود؟ انه المذلّة التي طوّقت رقاب الأسباط بواسطة الأقباط، في واحدة من اجلى ممارسات التمييز العرقي حيث كان الأقباط يتصرفون مع الأسباط من منطق الشعور بالفوقية والاستعلاء.

انها حركة ثورية لمواجهة وضع اجتماعي طبقي فاسد يسوّغ لبعض الطبقات استغلال الطبقات الأُخرى. وتهدف هذه الحركة الى استبدال الوضع القائم بوضع آخر مثالي وتحقيق هدفٍ محدد للحياة؛ وهو تحرير قومٍ من الأسر وارشادهم الى الارض الموعودة وتأسيس مجتمع يقوم على دعامة العقيدة والرسالة الاجتماعية الرافضة لعبادة

الطاغوت، والقضاء على الطواغيت الذين يبزوون شتى انواع العنصرية والتمييز، ومن ثم اقرار مبدأ التوحيد لكي تتجلى فيه الوحدة البشرية والعدالة الاجتماعية.

ماهية الدين التبريري

يسعى دين الشرك دائماً الى تبرير الوضع القائم عبر ترويج المعتقدات ذات الصلة بما وراء الطبيعة ويسعى الى تحريف الاعتقاد بالمعاد والمقدسات والقوى الغيبية وبشوّه المبادئ العقائدية والدينية ليقنع الناس بأنّ وضعهم الراهن هو الوضع الأمثل الذي يجب ان يرضوا به لانّه مظهر لإرادة الله تعالى وهو المصير المحتوم الذي كتبه الله عليهم.

ان القضاء والقدر بالمعنى الذي نفهمه اليوم هو من مخلّفات معاوية وإرث منه. فالتاريخ يروي لنا انّ الاعتقاد بالقدر والقول بالجبر أمور ابتدعها حكام بني امية ليسلبوا من المسلمين الشعور بالمسؤولية ويحرموهم -من خلاله- من كلّ انواع النقد ويقتلوا روح المبادرة فيهم لأنّ الجبر يعني الانصياع الى كل ما هو موجود والخضوع لكل ما هو كائن. في حين كان اصحاب النبي (ص) يشعرون دائماً بالمسؤولية الاجتماعية ويأخذونها على عاتقهم كمهمة أساسية ودائمية.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

انّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين يتبادران الى اذهاننا بمعناهما المبتذل الذي لا يسعنا التحدث عنه في الأوساط الفكرية المثقفة، هما عبارة أُخرى عما يسميه المفكر الاوربي اليوم بـ«المسؤولية الانسانية» أو «مسؤولية المبدع» أو «مسؤولية المثقف». ماذا تعني المسؤولية المبحوث عنها في الفلسفة والفن والأدب في عالمنا اليوم؟ انها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعينه، غير اننا مسخنا معنى هذين المبدأين بحيث اصبح العمل بهما عملاً مرفوضاً ومستهجناً.

استمرار دين الشرك

ان رسالة دين الشرك وهدفه كما ذكرت آنفاً هي تبرير الوضع الموجود. ما هو المقصود من تبرير الوضع الموجود؟ نحن نجد أن أبناء المجتمعات البشرية قد صنّفوا في التاريخ الى الشريف والوضيع والسيد والعبد والمقيد والمستبد، ونرى الشرائح والطبقات الانسانية قد قسّمت الى فئات ذات ماء وتراب وعرق مذهبي وفئات أُخرى فاقدة لكل هذه المزايا، وشعوب ذات افضلية دائمة على الشعوب الأُخرى وطبقات اجتماعية مفضلة على الطبقات الأُخرى وقبائل مرجّحة على القبائل

الأُخرى. هذه المعتقدات السائدة في حياة الناس هي في حد ذاتها جاءت لتبرّر الوضع الموجود.

يجب ان يكون هنالك تعدّد في الآلهة وتعدد في أقاليم الالوهية لكي يتحقق ويستمر التعدّد الفئوي والطبقي والقبلي والعرقي في المجتمع وفي العالم.

قد يستطيع بعض الناس ان يحرموا البعض الآخر بالقوة ويحصلوا على امتيازات حقوقية واقتصادية واجتماعية غير انّهم لا يستطيعون المحافظة على هذه الامتيازات بمنطق القوة. اننا نرى الأقوياء يحصلون دائماً على هذه الامتيازات في التاريخ ولكنهم يخفقون في المحافظة عليها.

وهنا يلعب الدين ـ أي دين الشرك ـ دوره الأساسي في حفظ هذا الوضع، وتتمثل مهمّته هنا في إخضاع الناس واقناعهم بأنّ هذا الوضع هو تجسيد لمشيئة الله وارادته وانّ انتماء الفرد للطبقة الوضيعة لم يكن بسبب وضاعة ذاته فحسب بل لأنّ ربه وإلهه وخالقه هو أدنى مرتبة من إله العرق الآخر وأقل شأناً من ربّ الطبقة الأخرى.

قاعدة حماة دين الشرك الاجتماعية

عندما يعمّ التميز والاختلاف الطبقي والعرقي في المجتمع يأخذ

دين الشرك على عاتقه رسالة تكريس هذا الوضع وتثبيته. ولذا نرى في التاريخ ان مؤسسي دين الشرك والمحافظين عليه في زمرة الطبقات الاجتماعية العالية بل قد نراهم أسمى درجة وأغنى مالاً وأكثر هيمنة من الطبقة الحاكمة.

انظروا الى رجال الدين المجوس ابان الحكم الساساني ولاحظوا هيمنتهم على العائلة المالكة والعسكر.

لاحظوا القساوسة في اوربا والحاخامات في قوم بني اسرائيل والسحرة والكهنة وزعماء الدين في القبائل الوثنية في افريقيا واستراليا انكم ترونهم جميعاً مع الهيئة الحاكمة يداً في يد وكتفاً الى كتف، وقد ترونهم احياناً يهيمنون على الهيئة الحاكمة أيضاً.

فقد تصل نسبة الاملاك التي كانت في حوزة القساوسة في اوربا الى أكثر من سبعين بالمئة، وفي العصر الساساني كانت أملاك علماء الدين المجوس والأراضي الموقوفة على المعابد والأماكن المقدّسة تزيد أحياناً على أراضي الاقطاعيين والمالكين الكبار.

وخلافاً لما نتصوره نرى الانبياء ـ الانبياء الذين نعتقد نحن بهم ـ نراهم يقفون بحزم بوجه الاديان التي برّرت ـ عبر التاريخ ـ الوضع الظالم المهيمن على حياة المجتمعات في القرون الخالية من الناحية الاقتصادية والاخلاقية والفكرية.

العامل الرئيسي في دين الشرك

ان العامل الجذري الذي يبتني عليه دين الشرك هو الاقتصاد الذي يقوم على أساس تملّك فئة قليلة من الناس وحرمان الأكثرية. وهذا العامل يحتاج الى الدين لحفظ نفسه وإدامة وجوده وتبرير بقائه وديمومته. فإنّ الدين هو العامل الذي يتمتع بقدرة عالية على اخضاع الفرد واقناعه بالذلّ والهوان. انّ هذا الدين ـ أي دين الشرك ـ هو الذي اخذ على عاتقه دائماً مهمة تبرير الوضع الموجود. كيف؟

أولاً: بترويج الاعتقاد بتعدد الآلهة ليصدّق الناس بأنّ تعدّد الشعوب والقبائل والطبقات هو أمر يرتبط بالمشيئة الالهية وعالم الغيب.

ثانياً: ولكي يحافظ دعاة هذا الدين على الامتيازات التي امتازوا بها على الطبقات الاخرى فانّهم كانوا دائماً من دعاة الأثرة والاحتكار.

الدين الافيوني

العوامل الاساسية لدين الشرك ـ كما يعدّدها الإلحاديون بحق ـ هي الجهل والخوف والمالكيّة والتمييز الطبقي. انّ هذه الامور

التي يذكرها الإلحاديون هي حقائق لا يمكن انكارها وانّ قولهم: «الدين أفيون للشعوب جاء ليخضع الناس للذل والهوان والجهل والتخلّف والمصير المجهول» هو قول صحيح لا يمكن انكاره والنيل منه.

المرجئة في التاريخ

المرجئة في التاريخ يبرّرون جريمة كل مجرم في المجتمع الاسلامي. انهم يتساءلون اولاً: لماذا يضع الله الميزان يوم الحساب؟ ويجيبون على هذا السؤال: بأنّ الله يضع الميزان للتدقيق في حساب عليّ ومعاوية.

أي لو كان الله تعالى هو الحاكم والمدقق يوم القيامة، فما شأنك انت؟ وهل يعنيك من سيكون على حق ومن سيكون على باطل؟ اذن عليك ان تعيش حياتك كيفما تشاء ولا تشغل بالك بهذه الأمور التي لا تعنيك.

حركة دين الشرك

انّ المسار التاريخي الذي ينتهجه دين الشرك يتمّ بأحد النحوين أدناه:

الأول: الشكل المباشر الذي نلاحظه في تاريخ الأديان: أي عبادة الخرزة ثم عبادة العلامة أو الراية الخاصة ثم عبادة القوة الغيبية الخفية (مانا)[1] ثم عبادة ارباب النوع ثم الاعتقاد بتعدد الآلهة فالاعتقاد بالأرواح وأخيراً الاعتقاد بالله وعبادته. هذه هي سلسلة دين الشرك في تاريخ الأديان، وهي في الوقت نفسه تجسد جوهر الاشكال الواضح الذي يرد على هذا الدين.

الثاني: الشكل الخفي الذي انتهجه دين الشرك وهو أخطر وأسوء من الشكل الأول. وهذا الشكل من الدين هو الذي ألحق أفدح الخسائر بكيان الانسانية ووجه الحقيقة على مرّ التاريخ.

ففي هذا الشكل يختفي الشرك وراء نقاب من التوحيد.

عندما يبعث الانبياء الداعون الى التوحيد، نرى دين الشرك يتصدى لهم ويقف في وجههم وعندما ينتصر الانبياء في هذه المواجهة، تستمرّ حياة دين الشرك وانصاره وخلفائهم بشكل خفي. فاننا نرى بلعم بن باعورا الذي هزم في مواجهة موسى يظهر على شكل الحاخامات في دين موسى وعلى شكل الفريسيين الذي قتلوا عيسى (ع). فالطبقة التي جابهت عيسى (ع) وتواطأت مع قيصر ملك الروم الوثني للقضاء على دين التوحيد واتباعه هي نفسها التي كانت تقف في وجه

(١) المانا: قوة تأثير غيبي في أدبيات الديانة المانوية وهي ديانة قريبة من الزردشتية.

موسى (ع)، السامري وبلعم بن باعورا ظهرا في التاريخ مرة أخرى غير انهما ظهرا هذه المرة بزي القساوسة الذين ارتكبوا باسم الدين في القرون الوسطى جرائم يندى لها جبين المغول والتتر. لقد سجلوا تلك الجرائم باسم الدين ـ الدين الذي يبتني على الحب والولاء والوفاء والصبر والعفو والمحبة ـ وباسم عيسى ـ مظهر السلام والعفو والشفقة في التاريخ ـ. هل كان هؤلاء انصاراً لدين عيسى (ع) حقاً؟ هل هؤلاء هم الحواريون؟ أم انهم أنصار دين الشرك والفريسيون بعينهم ظهروا هذه المرة بزي القساوسة لكي يتسللوا إلى دين موسى من الداخل ويعيدوه إلى حظيرة الشرك؟! وقد فعلوا!

اذن فالكلام الذي اطلق في القرن التاسع عشر بأنّ الدين هو أفيون للشعوب وأنه جاء ليروّض الناس على الحرمان والشقاء في هذه الدنيا باسم الاعتقاد بما بعد الموت ويقنعهم بأنّ كل شيء يحدث هو من عند الله وبمشيئته وانّ كل محاولة لتغيير هذا الوضع هي مخالفة لإرادة الربّ ومشيئته وعصياناً لأمره هو كلام صحيح بحدّ ذاته. وكذلك قول علماء القرن الثامن عشر والتاسع عشر بانّ الدين هو وليد جهل الناس وعدم اطلاعهم على الحقائق والعلوم أو قولهم: «ان الدين هو وليد مخاوف الناس» أو قولهم: «انّ الدين وليد التمييز والحرمان في عهد الاقطاع».

ولكنّ أي دين هذا؟ انه الدين الذي هيمن دائماً على التاريخ ـ

سوى حقب زمنية قصيرة لمعت كالبرق ثم انطفأت ... انه دين الشرك مهما كانت اسماؤه ومسمياته، حتى لو سمّي بدين التوحيد أو دين موسى أو دين عيسى أو اصطلح عليه بخلافة النبي أو خلافة بني العباس أو خلافة اهل البيت أو غير ذلك من الاسماء والمسميات. انه دين شرك ودعاة هذا الدين مشركون جاؤوا بلباس الدين وباسم الدين والجهاد والقرآن. ألم يرفع اتباع هذا الدين القرآن على رؤوس الرماح؟ انّ الذين رفعوا القرآن على الرماح هم القريشيون انفسهم الذي جابهوا نبي الاسلام للبقاء على عبادة اللات والعزى. إلّا انهم لم يقدروا على حفظ ذلك الوضع فتسللوا بين صفوف المسلمين ليرفعوا القرآن على الرماح ويضربوا علناً تلك الضربة القاضية، تلك الضربة التي ضربوا بها الله والرسول.

لقد حكم دين الشرك باسم الاسلام وباسم خلافة الرسول وآله وباسم القرآن كما حكم في القرون الوسطى باسم عيسى وموسى اللذين اوسبا دعائم دين التوحيد في التاريخ.

أن الدين التبريري والدين التخديري والدين الرجعي والدين الذي لا يهتم بأمور الناس هو الذي حكم المجتمعات البشرية عبر التاريخ. اذن لابد أن نصدق الذين قالوا ان الدين هو وليد المخاوف والاقطاع وانه تخديري ورجعي لأنهم استنبطوا ذلك من التاريخ. غير انهم لم يعرفوا الدين حق معرفته لانهم لم يكونوا متخصصين بمعرفة

الدين بل كان حقل تخصصهم التاريخ وكل من يراجع التاريخ يرى هذه الحقيقة متجلّيةً في الأديان جميعاً، سواءاً تلك التي حكمت باسم دين التوحيد او تلك التي حكمت بصراحةٍ باسم دين الشرك.

لقد قارنت جميع الصفات والاسماء المرادفة للفظ الجلالة «الله» في الاديان الابراهيمية وفي اديان الشرك أيضاً ورأيت ان هذا الدين - اي دين الشرك - هو حقّاً وليد خوف الناس وجهلهم. لماذا؟ لأنّ اتباع هذا الدين (أي اولئك الذين يروّجون دين الشرك) يخشون دائماً يقظة الناس ووعيهم. أنّهم يريدون ان تكون العلوم والمعارف مقتصرة على الأشياء الثابتة والدائمة ويكون هذا أيضاً خاصّاً بهم ولا يبيحوا بسرّه لغيرهم. وذلك أنّ دين الشرك سيتلاشى بتطور العلم واتساع رقعته لأنه يقوم على اساس الجهل والامية. فاذا وعى الناس ونشطت روح الانتقاد فيهم وطالبوا بالعدالة والقسط وانبعث الامل في نفوسهم ستتزلزل أركان هذا الدين. هذا الدين كان على مرّ التاريخ محافظاً على الوضع الموجود، وكانت هذه مهمته قبل عهد الاقطاع وبعده، في شرق العالم وغربه.

ان الصفات والأسماء الالهية كالهيبة والهيمنة والجبروت تترجم وتفسر في اديان الشرك دائماً بمعناها الاستبدادي في حين نجد جميع الاسماء والصفات القديمة في الاديان الابراهيمية حتى تلك التي يرجع تاريخها الى أكثر من ألفين أو ثلاثة آلاف سنة تنبثق من أحد أمرين:

الأوّل: العشق والجمال وعبادة الجلال والجمال المطلق.

الثاني: الابوّة، السيادة، الكرم، الحكومة والحماية. وعليه، فمن يزعمون بأنّ الدين الذي حكم العالم عبر التاريخ هو وليد جهل الناس وخوفهم من الكوارث الطبيعية، كلامهم صحيح بحد ذاته.

لقد كانت الأديان الابراهيمية وليدة رغبة الانسان وحاجته الى هدف معين وحكومة خاصة وميله الفطري الى الخضوع والخشوع امام الجمال والكمال والجلال المطلق. فقد كانت هذه الاديان تلبّي جميع حوائج الانسان ـ النفسية والفلسفية والاجتماعية ـ وقد تصدى أنبياء هذه الأديان ـ الأديان الابراهيمية ـ لجميع القوى الحاكمة سواءً المادية منها او الاجتماعية او المعنوية وحطّموا جميع الأصنام سواءً الأصنام المنطقية ـ كما يسميها فرانسيس بيكون[1] ـ أو الاصنام المجسّمة أو الاصنام الأخرى، الاقتصادية منها أو المادية، وقد تصدّى هؤلاء الانبياء لجميع مظاهر دين الشرك ـ الدين التبريري ـ ونهضوا بمسؤولية تغيير الوضع الموجود داعين أتباعهم الى استبدال هذا الوضع بالعدالة

(١) ولد في ستراند، على مقربة من لندن عام ١٥٦١ وتوفي في لندن عام ١٦٢٦، وضع دائرة معارف واسعة تبتنى على أساس الملاحظة التجريبية والمنهج الاستقرائي، ورمت في التحليل الأخير إلى وضع الطبيعة في خدمة الانسان. له العديد من المؤلفات منها: «في حكمة الأقدمين»، «مقدمات للتاريخ الطبيعي والتجريبي». انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص ٢٢٦. (المترجم)

والقسط. وقد أكّد القرآن هذا الأمر مشيراً الى انه الهدف الاسمى من بعثة الانبياء والرسل. فالمقصود من إقرار العدالة والميزان والقسط هو تغيير الوضع الموجود لامداهنته. واريد ان استنتج هنا ان الدين لم يقف بوجه الالحاد بقدر وقوفه بوجه الدين. بلى، كان الدين على مرّ العصور في صراع دائم مع الدين نفسه. لقد وقف دين التوحيد الذي يرتكز على وعي الانسان وبصيرته وعشقه وحاجته الفلسفية الفطرية بوجه دين الشرك المنبثق من جهل الناس وخوفهم، ولهذا نرى دين التوحيد ديناً ثورياً على مرّ التاريخ فكلّما نجح دين الشرك التبريري في تحريف الدين الأصلي والتلاعب بعقائد الناس ظهر نبي ابراهيمي جديد ليدعو الناس الى اتّباع القوانين الالهية العامة التي تعكس ارادة الله تعالى، ولذلك نرى أن دين التوحيد يتّسم دائماً بنزعة التمرد والانكار والرفض والمواجهة.

الله والناس

في التوراة والانجيل (في بعض الأجزاء التي سلمت من التحريف) وفي القرآن أيضاً، نرى الله تعالى والناس في جبهة واحدة. أي اننا نستطيع استبدال كلمة الله بكلمة الناس أو كلمة الناس بكلمة الله في جميع الآيات القرآنية التي تعالج المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ـ لا المسائل الفلسفية والعلمية ـ مثال ذلك الآية الكريمة:

﴿أن تقرضوا الله قرضاً حسناً...﴾ فهل تعني هذه الآية ان الله يحتاج الى من يقرضه قرضاً حسناً وهو الغني عن العالمين! كلا، بل انّ المقصود من الله في هذه الآية هم الناس، وهذا التقارن مشهود في جميع الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تعالج المسائل والاتجاهات الاجتماعية، والمراد اثبات ان الله تعالى والناس يقفون في صف واحد وجبهة واحدة.

اتباع الطاغوت

وفي الجبهة المقابلة يقف اتباع الطاغوت. من هم اتباع الطاغوت؟ انهم اولئك الذين يعبّر عنهم القرآن بـ«الملأ» وهم المترفون الذين يملأون العين ويشغلون المناصب والمواقع المهمة في مجتمعاتهم ولا يلتزمون بمسؤولياتهم وواجباتهم.

الدين الذي حكم التاريخ هو دين الملأ والمترفين، وكانت حكومة هذا الدين تتراوح بين الحكم المباشر والصريح، والحكم تحت غطاء «دين الله والناس».

اما دين التوحيد فانّه لم يتحقق في اي برهة من التاريخ، ويكفي الشيعة فخراً انّهم رفضوا الحكومات المتسترة باسم الاسلام والتي حكمت في القرون الوسطى اعتقاداً منهم بأنّ عمل هذه الحكومات هو

نهب امبريالي وانّ هذا الحكم هو اقرب الى حكم كسرى وقيصر منه الى خلافة رسول الله (ص).

اذن فالدين الابراهيمي هو الدين الذي ظل يواجه دائماً دين الطاغوت والملأ والمترفين ويدعو الناس الى النهوض والتمرّد على جبهة (الملأ) ويبشرهم بأن الله تعالى معهم وفي صفوفهم.

خطاب هذا الدين موجّه للناس وهدفه اقرار العدالة ونشرها.

هذا الدين وليد وعي الناس وحاجتهم الماسة الى العشق والعبادة والوعي، غير انّه لم يتحقق عينياً في التاريخ، بل ظلّ على شكل نهضة انتقادية عارمة تقدت التاريخ ولم تتحقق فيه بشكل كامل قط. وانّ الدين الذي هيمن على التاريخ هو دين الشرك ـ دين الطاغوت والملأ والمترفين ـ الدين الأفيوني الذي أخذ على عاتقه مسؤولية تبرير الوضع الموجود.

أودّ ان أقول لأولئك المفكرين الذين يسألونني دائماً: «انت بصفتك مفكراً كيف ترتكز على الدين الى هذا الحد؟» انّني عندما اتحدث عن الدين فاني لا اتحدث عن الدين الذي كان مهيمناً على المجتمعات في الماضي بل اتحدث عن دين كان هدفه الوقوف بوجه الدين المهيمن على المجتمعات عبر التاريخ. انّي اتحدث عن دين يعث انبياؤه لمقارعة دين الشرك بجميع اشكاله بيد انّ هذا الدين لم يتحقق في الماضي بشكل كامل وانّ المسؤولية التي تقع على عاتقنا اليوم هي

السعي لتحقيق هذا الدين في المستقبل، وهذه المسؤولية هي مسؤولية الانسانية جمعا ـ فاهتمامنا بالدين ليس رجوعاً الى الوراء، بل هو مواكبة لحركة التاريخ.



يتّضح في بداية هذا البحث مقصودي من عنوان هذا المقال «الدين ضد الدين» واستعرضت في حديثي الفكرة التي توصلت اليها اخيراً (وانّ لم يكن هذا الاكتشاف اكتشافاً علمياً او فلسفياً معقداً بل هو شيء بسيط غير انّ الكثير من الامور البسيطة التي لا نتنبه اليها تعود علينا بنتائج سيئة جداً).

ذكرت في حديثي ان الدين لم يصارع الكفر والالحاد ـ بالمعنى الذي يتبادر في ذهننا ـ وذلك أنه لم يكن في الماضي اي مجتمع الحادي أو طبقة الحادية غير دينيّة، والتاريخ يشهد لنا بانّ الناس على مرّ العصور كانوا متديّنين دائماً في مسارهم الاجتماعي التاريخي. وقلت ايضاً انّ المجتمعات البشرية بكلّ اصنافها وبدون استثنا، كانت مجتمعات متدينة في جميع مراحل التاريخ، أي ان الدين كان الأساس الفكري والثقافي لكلّ المجتمعات في طول التاريخ، بحيث لو اردنا اعداد تحقيق عن التاريخ الحضاري والثقافي لمجتمع مّا نجد انّ تحقيقنا قد تبدّل بشكل عفوي الى تحقيق عن الحضارة الدينية أو

الثقافة الدينية لذلك المجتمع.

فهل يمكن التحدث عن الحضارة الهندية بدون التطرق الى الدين الودائي والبوذي والاذعان بانّ هذه الاديان هي المحور الرئيسي والجوهر الأساس في هذه الحضارة المعطاء؟ وهل يمكن التحدث عن الحضارة الصينية بدون التطرق الى لائتسه وكنفشيوس واعتبارهما المحور والجوهر لهذه الحضارة العريقة؟

اذن نحن نعلم انّ البشر كانوا متدينين على مر التاريخ[1] وانّ البشر لم يكونوا معتقدين بالدين فحسب، بل كانت حياتهم ترتكز على قاعدة دينية، ولم يكن الدين مهمّاً في مضامير الثقافة والاخلاق والمعنوية والفلسفة فحسب بل كانت الهيئة المادية والاقتصادية وحتى الطابع المعماري في المدن القديمة دينياً أيضاً.

وقلت أيضاً: انّ العمران في أغلب المدن القديمة هو عمران رمزي فاننا نجد ابنية المدينة تحيط بمعبدها، كون المعبد رمزاً لتلك المدينة. فكما نرى اليوم برج ايفل رمزاً لمدينة باريس، كانت المعابد رمزاً للمدن في الماضي فقد كان معبد «دلفي» مثلاً رمزاً لمدينة اثينا في الحضارة اليونانية.

ولنا أن نتساءل: ما هو الفكر والواقع الاجتماعي الذي وقف

(١) التاريخ بمعنى قصة حياة الانسان الاجتماعية لا بالمعنى المصطلح، ...

يواجهه انبياؤنا المؤسسون لهذه النهضة التاريخية الممتدة من آدم (ع) الى خاتم الانبياء (ص)؟ ومن هم الذين وقفوا في وجه هؤلاء الأنبياء وهذه الاديان الابراهيمية الحقّة ؟

نعلم انّ «الكفر» هو جواب جاهز لهذه الأسئلة. لكنّ الكفر لا يعني عدم التدين بدين خاص. بعبارة أخرى ان الأنبياء لم يأتوا ليدعوا الناس الى أصل التدين والشعور الديني ولم يأتوا لتبليغ العبادة في المجتمعات البشرية لأن العبادة والشعور الديني والاعتقاد بالغيب والايمان بالله او الآلهة كان سائداً في جميع الأقوام والمجتمعات التاريخية. واذا لاحظنا بعض «الزنادقة» أو «الدهريين» يقفون بوجه الأنبياء ـ وقلّما نجد ذلك لأنّ هؤلاء وقفوا في الغالب بوجه الفلاسفة وزعماء الدين ـ فانّنا نراهم يعتنقون مبدأً دينياً بشكل آخر أو باعتبار آخر أي أنهم كانوا يؤمنون بالقوى الغيبية وبما وراء الطبيعة. ثم انّ الدهرية والزندقة هي ظاهرة متأخرة جداً من حيث الزمن اي انها تتعلق بمراحل التطوّر الفكري والفلسفي والعقلي في تاريخ البشر، وان الذين كانوا يشكّكون في الدين والعقائد الدينية هم من النوادر، ولم تدخل الزندقة في مجرى التاريخ ولم تصنع كياناً يختص بها في أيٍّ من حقب التاريخ.

ان تاريخ البشر هو عبارة عن تاريخ المجتمعات الانسانية في جميع المراحل الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والثقافية

والحضارية التي كانت دينية دائماً. وانّ انبياءنا بدأوا هذه النهضة الدينية على ضوء حاجة مجتمعاتهم ومقتضى ظروفها الخاصة. وانّ الذي وقف دائماً في وجه هؤلاء الانبياء وسعى دائماً الى تحريف مبادئهم هو «الكفر» لا الزندقة والالحاد.

صفوة القول، انّ الدين ـ بالمعنى الذي نفهمه نحن ـ كان في صراع دائم مع الدين وان رسالة الانبياء ومحور دعواتهم يتمثل في الصراع مع الكفر، لا الصراع مع الزندقة والالحاد. إذ الزندقة لم تكن سائدة في تلك المجتمعات. وهنا لابدّ لي ان اشير الى انّ هذا الاستنتاج هو استنتاج قرآني لحسن الحظ:

دين الكفر ودين الاسلام

يأمر الله تعالى النبي (ص) ان يقول للكافرين الذين ناهضوا الاسلام بمعناه الأعمّ وحاربوا ابراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام): ﴿**قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون**﴾ لاحظوا التكرار والدقّة في هذه السورة كل ما اريد أن أقوله، موجود فيها: ﴿**لا اعبد ما تعبدون**﴾، اذن الخطاب موجه للكافرين لا الزنادقة. المسألة ليست مسألة صراع بين العبودية والزندقة وانما الصراع بين العبودية والعبودية وانّ الذين ناوؤوا نبي الاسلام لم يكونوا من الزنادقة (الذين لا يؤمنون بوجود إله)

بل كان عدد آلهتهم اكثر بكثير من اله الاسلام الواحد. ﴿ولا انتم عابدون ما اعبد﴾ وهذه الآية لا تختلف في المعنى عن الآية السابقة إلاّ انّ القرآن يكرّر هذا المعنى لأنّه يريد ترسيخ هذا المبدأ في أدمغتنا وعقولنا. ﴿ولا انا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما اعبد﴾ انه يعيد ويكرر المفهوم نفسه. وفي آخر السورة يعلن النص التالي شعاراً لهذه النهضة: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾، ومعنى هذا ان الصراع على طول التاريخ هو صراع بين الدين والدين وليس بين الدين والزندقة.

هيمنة دين الكفر على التاريخ

ذكرنا في القسم الاول من حديثنا ان دين التوحيد ودين الكفر كانا في صراع دائم في التاريخ ونتساءل الآن: «من كان المنتصر في هذا النزاع؟» في الحقيقة ان النصر كان حليفاً لدين الكفر دائماً. ويكفي لاثبات ذلك نظرة عابرة الى تاريخ المجتمع البشري.

انّ انبياءنا ـ الانبياء الذين نعتقد بحقانيتهم ـ لم يستطيعوا ان يطّبقوا دينهم بشكل كامل ومنشود في أي مجتمع وفي اي برهة من التاريخ.

لقد كان هؤلاء الانبياء يظهرون على شكل نهضة وثورة وتمرّد على الدين الحاكم، إلاّ انّ جبر التاريخ ـ الذي كان في ايدي الكافرين ـ

ودينهم ـ الذي كان يبرر الوضع الموجود ـ كانا يفرضان استمرار حكومة الكفر وبقاءها. وبما انّ السلطة سواءٌ الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية ـ كانت بأيديهم دائماً، لذا لم يستطع دين الحق ان يتجسد بشكل واقعي في اي مجتمع منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا.

ما هو هذا الدين ومن هم هؤلاء ؟ من أجل أن نضع اسماً لهذا الدين ولكي يكون كلامنا أكثر بساطة وشفافية يمكننا أن نقتبس من النصوص الدينية اسماءاً وصفاتٍ عديدة. الا انّ هذه الاسماء قد تكون اكثر مناسبة من غيرها:

هو «دين الناس» من زاوية المخاطب وهو «دين الله» من حيث محور الدعوة وروحها وجهتها. الدين الذي وقف دائماً بوجه الدين الموجود وحمل راية الصراع في كل زمان ومكان هو الدين الذي كان محور خطابه «الناس» وكانت دعوته دعوة الى «الله». انّ هذا الدين ـ اذن ـ هو دين «الله والناس».

المال مال الناس

لو راجعنا القرآن لرأينا في اول نظرة انّ القرآن يبتدىء بكلمة «الله» ويختتم بكلمة الناس. ونرى ايضاً انّ مخاطبي هذا الكتاب هم الناس دائماً.

ان دين «الله والناس» ـ اي الدين التوحيدي ـ يفصل وجود الله وذاته عنا سواء وهما الانسان والطبيعة ـ خلافاً لما تراه نظرية وحدة الوجود الهندسية ـ ولكنْ «الله» و «الناس» في هذا الدين يقفون في صف واحد وجبهة واحدة من حيث المكانة والجهة الاجتماعية. بحيث اننا نستطيع استبدال كلمة «الله» بكلمة «الناس» وبالعكس في جميع الآيات التي تتعلق بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية والمسائل المتعلقة بالحياة. مثلاً: «مال لله»، فكلمة الله في هذه العبارة تختلف عن معناها الوثني القائل بحاجة الله الى التملك والثروة والذي يفرض على الناس ان يدفعوا مبلغاً من اموالهم ـ نذراً او هدية ـ الى المعبد أو صاحبه!

انّ معنى هذه العبارة: هو انْ «المال للناس»، وهذا التفسير ليس تفسيراً خاصاً بي فأكون قد فسّرته برأيي متأثراً بالعوامل الفكرية السائدة في عالم اليوم، بل هو ذات التفسير الذي أفحم به أبو ذر معاوية بقوله: «انك تريد ان تأكل مال الناس بدعوى انّ المال مال الله وانك خليفة الله في ارضه ويحق لك ان تأكله او تهبه لمن شئت». يريد أبو ذر أن يقول لمعاوية انْ مال الله هو مال الناس وليس مالْ الملأ.

ان «مالكية الله» تعني «مالكية الناس» لأنْ الله والناس في صف واحد: «الناس عيال الله» ومن المسلّم ان يكون المعيل والعيال في صف واحد.

عيال الله

ويقف مقابل عيال الله الملأ والمترفون واولئك الذين تسلّطوا على رقاب الناس وسيطروا على ثرواتهم وسلبوا منهم حق تقرير مصيرهم الاجتماعي والاقتصادي. وقد كان هؤلاء الملأ والمترفون اصحاب دين ولم يكونوا ماديين ووجوديين أو زنادقة، كانوا يعبدون الله (أو الآلهة).

دعم التمييز الطبقي والعرقي

ذكرت في القسم الأول انْ الشرك لا يحمل معنى فلسفياً فحسب بل انه يعني «تبرير الوضع الموجود». فما هو الوضع الموجود في التاريخ؟ انه الشرك الاجتماعي.

والآن ما هو الشرك الاجتماعي؟ انه يعني وجود اصنام متعددة بعدد الطبقات والفئات والأعراق والقبائل في المجتمع. فقد كان لكلْ شعب وعرق وقبيلة صنم أو إله خاص، وكانت عبادة هذه الاصنام تعني الاعتقاد باصالة هذه الشعوب والطبقات والفئات المتنوعة وضمان حقوقها وامتيازاتها الخاصة. بينما يصرّح دين التوحيد انّه لا اله إلاّ الله ولا خالق ولا معبود سواه وانْ الربْ والخالق هما مفهوم واحد.

الربّ والخالق

تعتقد الأديان جميعاً بان الله هو خالق الكون. غير اننا نجد الاصنام تتعدد عندما نتطرق الى مفهوم الربوبية. فجبابرة التاريخ كفرعون ونمرود لم يدّعوا الخلق وانما كانوا يدّعون أنهم اربابٌ للناس، فالرب هو الصاحب والمالك ولا يعني الخالق.

كان فرعون يقول: «انا ربكم الاعلى» اي انا صاحبكم ومالككم ولم يقل انا خالقكم وبارئكم.

لقد كانت اديان الشرك جميعاً حتى الاديان اليونانية تعتقد بالله في مسألة الخلق الا اننا نجد آلهة متعددة أُخرى تظهر فيما بعد تحت عنوان «ارباب الناس». لماذا؟ لتحقيق مختلف انواع واشكال الهيمنة وزرع بذور الاختلاف والفرقة بين أفراد البشر أو بين فئات المجتمع الواحد بغية تصنيف المجتمع الى طبقات عديدة وفئات متضاربة بين حاكم ومحكوم ومتخم ومحروم.

المدينة المنورة رمز المجتمع المثالي

ذكرت في القسم الأوّل من هذا البحث ان «دين الله والناس» كان على مرّ التاريخ على شكل نهضة كفاح ونضال ضد الواقع المهيمن ولم

يكن على شكل دين يبني المجتمع على اساس مبادئه. فاننا لا نجد في التاريخ البشري مجتمعاً قد بني على اساس هذا الدين سوى مجتمع المدينة المنورة في حياة رسول الله (ص) ولم يكن هذا المجتمع حقيقة تاريخية في مرحلة معينة بل كان على شكل رمز مثالي ـ كما ذكرت آنفاً ـ.

انّ عمر هذا المجتمع لا يتجاوز العشر سنوات مقابل خمسين ألف سنة من التاريخ، فقد حكم دين الشرك في المدينة على مرّ التاريخ تارةً باسم دين التوحيد وأُخرى باسم دين الشرك ولكنّ الفرصة لم تسنح لدين «الله والناس» الا في هذه السنوات العشر ليبني نظاماً اقتصادياً واجتماعياً وتربوياً وينظم العلاقات الفردية والاجتماعية والفئوية والطبقية والعرقية وكذلك العلاقات بين الاقلية والاغلبية على اساس دين «الله والناس».

لقد استطاع هذا الدين ان يبني هيكلية هذا النظام غير انه لم يتمكن من تطبيقه بشكل كامل، لانّ الانسان لا يستطيع ان يطبّق نظاماً يبتني على اساس رسالة تتغلب على التاريخ في عشر سنوات فقط . وقد لمسنا ذلك تاريخياً، فانّ سكان المدينة لم يقدروا على تغيير تربيتهم الفطرية والاجتماعية التي تبتني على اساس الجاهلية في مدة عشر سنوات ولم يستطيعوا المحافظة على ذلك النظام العظيم. ورأينا ايضاً عدو هذا النظام وهو يسيطر على كل شيء مرة اخرى

بعد مرور عشرين سنة فقط .

اذن نستنتج هنا ان النظر الى التاريخ بهذا الشكل وان امعان النظر فيه بهذه الطريقة سينتهي بنا الى العدول عن كثير من التصورات التي رسمت في اذهاننا عن التاريخ والدين والزندقة وعن المفكرين والالحاديين والمتدينين في الماضي والحاضر، وهكذا بالنسبة للعلاقة بين العلم والحضارة والعلاقة بين الماديين والدينيين.

وعلينا ان نعطي الحق لمفكري القرنين السابع عشر والثامن عشر وكذلك القرن التاسع عشر حيث قالوا: «ان الدين كان أفيوناً للشعوب على مرّ التاريخ» لأن هؤلاء، وضعوا الدين الذي كان مهيمناً على التاريخ وعلينا ان نؤيد مزاعم من قالوا: «انّ الدين هو عامل لتبرير السلطة الاقتصادية والاجتماعية التي تتمتع بها الاقلية ضد الاغلبية في التاريخ» انهم على حق لأنّ الدين كان يبرّر الوضع الموجود في عهد الاقطاع. ونرى هذه الحالة في كل المجتمعات وفي كل المراحل التاريخية التي نجد فيها شكلاً من اشكال الحكومة والاقتصاد، فلقد كانت مهمّة الدين تبرير الوضع الموجود عبر استغلال العقائد الدينية الراسخة في فطرة الناس.

وما أكثر النماذج التي تؤيد هذا الكلام، فما عليكم إلّا ان تختاروا حقبة من التاريخ لتلاحظوا الطريقة التي كان ينتهجها الدين في تلك الحقبة التاريخية. ولندرس هذه الحالة في ايران مثلاً:

الدين في ايران

حكم الدين على المجتمع الايراني في العهد الساساني بشكل مباشر، فقد كان الملوك والامراء في هذا العهد يخضعون بشكل كامل لعلماء الدين والمعابد وكان النظام الطبقي سائداً في هذا المجتمع على النحو الذي لا يستطيع فيه أي شخص من الطبقة السفلى الارتقاء الى طبقة أعلى بأيّ حيلة أو معجزة.

الطبقة الأولى والطبقة الثانية

تقع العائلة المالكة والنبلاء في الطبقة الأولى في العهد الساساني والى جانبهم رجال الدين ـ موبدان ـ في الطبقة الثانية، وكانت السلطة في هذا العهد تتراوح بين هاتين الطبقتين فتارةً تسيطر الأولى على الثانية وأخرى بالعكس.

بيد أنهم كانوا جميعاً من الملأ والمترفين الذين لا همّ لهم سوى استثمار الناس واستغلالهم فلا فرق بين هاتين الطبقتين سوى انّ الأولى ـ العائلة المالكة والاشراف تستثمر الناس بالقوة، والثانية ـ رجال الدين ـ تنهب ثروات الناس بالتبرير الديني، ولذا نرى ثروات الناس دائماً في أيدي هاتين الطبقتين ونرى القسم الأكبر منها أحياناً في يد رجال الدين كما يقول آلبر ماله: «كان سهم رجال الدين المجوس ثمانية عشر سهماً من اصل عشرين سهماً». (٢)

الطبقة الثالثة

تشتمل هذه الطبقة على الصنّاع وأصحاب الحرف والعسكر والمزارعين وهي طبقة محرومة من كل مفخرة وليس لها أي حق اجتماعي لانها تنتمي الى عرق نجس! ـ كما هو متعارف في الهند ـ.

ينقل الفردوسي[1] عن «رستم فرخزاد»[2] قوله: لو أتى الاسلام لساوى بين السيد والعبد ولخلط الاعراق ولضيّع فضيلة الحسب والنسب، لأنّ الحسب والنسب لا يمكن أن يكونا ملاكاً للفضيلة في الاسلام ويحقّ للعبد والسيد على حد سواء أن يتصدّى لمسؤولية القيادة والحكم في المجتمع الاسلامي».

انّ هذه الألفاظ التي أراد الفردوسي أن يعبّر بها الاسلام تعدّ من أكبر المفاخر وأبهى الشعارات المرفوعة في عالمنا اليوم.

كان الدين يبرّر وجود التمييز الطبقي في العهد الساساني، وذلك ان الجبابرة لم يكونوا قادرين على ذلك لأنّهم لا يجيدون الفلسفة والتبرير ولا يعلمون شيئاً عن ما وراء الطبيعة ويلجأون الى القوة فقط.

انّ ابن الاسكافي في العهد الساساني يحرم من الدراسة. لماذا؟!

(١) شاعر ايراني كبير عاش في القرن الرابع الهجري وكتب ملحمة «الشاهنامة».
(٢) قائد القوات الايرانية في معركة القادسية.

لانّه لو أكمل دراسته سينتمي الى طبقة الكتّاب وهي طبقة أُخرى أسمى من طبقته الوضيعة. اذن يجب ان يبقى ابن الحذاء هذا حذّاءاً هو وابناؤه واحفاده الى ابد الدّهر حتى لو كان من النّوابغ. إن عليه حينئذ ان يستخدم نبوغه في صناعة الأحذية فقط.

رجال الدين المجوس وتبرير التمييز الطبقي

دأب رجال الدين المجوس على تبرير التمييز الطبقي والفوارق الطبقيه في العهد الساساني، كان هنالك ثلاثة أنواع من النار المقدسة وتعد كل واحدة من هذه النيران الثلاثة مظهراً من مظاهر (آهورا مزدا)[1]:

١ ـ نار «كشنسب» في آذربايجان.

٢ ـ نار «برزين مهر» بالقرب من مدينة سبزوار.

٣ ـ نار «اسنخر[2]» في فارس (بالقرب من مدينة شيراز).

هذه النيران الثلاثة من مظاهر آهورا مزدا إلّا ان آهورا مزدا نفسه

(١) مركبة من (آهورا) خالق الروح والحياة و (مزدا): صفة آهورا، كما ان (مزدا) مركبة من (مه) وتعني عظيم و (زدا) وتعني العالم المطلق، وهو إله الخير عند المجوس.
(٢) اسم حصن في فارس، وسمّي بذلك لانّ فيه مسبحاً عظيماً.

بنبع النظام الطبقي أيضاً. فالنار الموجودة في آذربايجان هي للملوك والاسرة المالكة. والنار الموجودة في فارس خاصة برجال الدين. والنار الموجودة في القلعة القريبة من سبزوار -برزين مهر- هي للمزارعين والفلاحين وأصحاب الحرف.

انّ آهورا مزدا لا يحمل وجهاً واحداً وناراً واحدة حتى في دين المجوس الذي تتحد فيه آلهة الجمال والخير ويعبد الناس الهاً واحداً (آهورا مزدا) ويصاوعون عدوّاً واحداً (اهريمن). فالنار المقدسة تبرز وجود الاختلاف بين هذه الطبقات الثلاثة وتوحي بعدم امكانية اندماج هذه الطبقات لأنها متباينة وليست متشابهة. وهذا الاختلاف والتباين من وجهة نظرهم هو انعكاس لإرادة آهورا مزدا لأنّه هو الذي شاء ان يكون ذلك مثلما شاء ان تكون النار مقدّسة.

وهكذا نرى آهورا مزدا يثبّت هذا الثالوث الطبقي في المجتمع لكي يوحي للفلاح ان إلهه الخاص وناره المقدسة هي الموجودة في مدينة سبزوار وليست في فارس أو آذربايجان وانّ النيران الأُخرى لا تنفعه ولا تضره، بل لا تخصّه ولا تعنيه أصلاً.

وفي الهند أيضاً عندما يريد بوذا التحدث عن الإله او الآلهة أو عندما يريد الافصاح عن شعور عظيم أو الكشف عن فكرة سامية، يقول: هذه طريقة آريّة أو هذه فكرة أريّة ويقصد بذلك انها تختصّ بالعنصر الآري أي العنصر النجيب الأصيل وانها لا تتعلق بالطبقات

النجسة الأُخرى التي حكم عليها بالتجاسة لأنّها لا تنتمي لهذا العنصر.

لقد كانت الانظمة الطبقية والعنصرية والعرقية تستولي على كل شيء حتى على مقدسات الانسان وأفكاره الدينية وكان الدين يبرر دائماً هذه الفوارق الطبقية مستغلاً بذلك تخلف الناس الفكري والفلسفي.

وعندما نلاحظ تصريحات بعض الفلاسفة كأُوسطو وافلاطون بأنّ العبد يولد عبداً وان السيد يولد سيداً وانّ الأُسر الشريفة تتمتّع بعرق شريف وانّها محصورة مثلاً في مدينة (أثينا) في عشرين اسرة فقط (لا أكثر ولا أقلّ)، فانّنا نرى ذلك يحصل في زمن كان الناس يعيشون فيه تحت هيمنة الدين.

لقد كان دين «الملأ» ينتج الأفيون للمجتمع بإنتاجه لمواعظ من هذا القبيل: «أنتم لستم مسؤولين لأنّ كلّ ما يحصل هو حاصل بارادة الله ومشيئته!»...«لا تشكوا من الحرمان ولا تتألّموا فانّكم ستجزون في مكان آخر!»... «اصبروا على كل شيء لكي يضاعف الله لكم الأجر!».

هكذا كانوا يخمدون احتجاج الفرد ويجمدون حركته الإرادية.

كان الجبابرة يستخدمون العنف في مواجهة الناس واخماد نزواتهم. لكنّ الدين كان ينتهج طريقة أُخرى في وأد النهضة ووذ الانتقاد واخماد ثائرة الغضب والاحتجاج وهي تبرير الموقف بطريقة كهذه: «انّ كل ما حصل قد حصل بمشيئة الله. فأي احتجاج واعتراض

سيكون بمنزلة الاحتجاج على الله ومشيئته».

وعلى الضفة الأخرى يقف دين الحق في مقابل هذا الدين التخديري التبريري الماكر الذي سلب من الناس شعورهم بالمسؤولية وبرّر التمييز الطبقي والعرقي في المجتمعات عبر التاريخ.

أنبياء دين التوحيد

دين التوحيد هو دين الانبياء الرعاة، الانبياء العمّال، الانبياء الذين عجن الحرمان والجوع في طينتهم، اولئك الذين وصفهم نبيّنا (ص) بأنهم كانوا جميعاً من الرعاة، وقد وقف دين هؤلاء الانبياء دائماً بوجه دين الطبقة الحاكمة، دين القساوسة والرهبان والسحرة.

إن دين عبادة الطاغوت الذي كان يتمتع بكل شيء طوال التاريخ كان يدور، آلةً في يد الطبقة الحاكمة لاستثمار الطبقات السحيقة وقمعها وإقناعها، ولقد ظهر هذا الدين بشكليه الجلي والخفي في كل حقبة من حقب التاريخ..

دين الشرك الجلي والخفي

الشكل الأوّل هو الشكل البدائي والواضح والصريح الذي يسمّى

«دين الشرك الجلّي» والذي لا يزال موجوداً بين بعض القبائل في افريقيا. ويعتقد اتباع هذا الدين بتعدد الآلهة ويقدسون بعض الحيوانات أو الأوثان أو الطلاسم والرموز الخاصّة.

انّ محاربة هذا الدين «دين الشرك» عندما يكون جليّاً وعارياً ومكشوفاً يعدّ امراً سهلاً لكنّ محاربته ستزداد صعوبة عندما يختفي وراء ستار من «دين التوحيد» ويكون آلة في يد الملأ والمترفين، وذلك هو الشكل الآخر من دين الشرك، الذي يظهر فيه دين الطاغوت باسم دين التوحيد ليقضي على دين «التوحيد» ويظهر اتباع الطاغوت باسم عباد الله ليبسطوا سلطتهم على قادة نهضة التوحيد والمجاهدين في سبيله. طالما كرّرت هذا السؤال على طلبتي في دروس «تاريخ الاسلام» في كل عام واقوله لهم مسبقاً لأنني اعلم ويعلم الجميع ايضاً انه لو اجيب على هذا السؤال جواباً صحيحاً فانّ الكثير من المشاكل سوف تحل ـ حتى المشاكل الاجتماعية ـ والسؤال يقول ان شخصين احدهما رسول الله (ص) والآخر الامام علي (ع) أرادا ان ينشرا الدين في مجتمع واحد، فلماذا خرج رسول الله (ص) منتصراً ولم يخرج الامام علي (ع) منتصراً من هذه المهمّة؟ كلاهما كانا من عرب القرن السابع الميلادي والدين الذي كانا يدعوان اليه هو دين واحد والقرآن قرآن واحد والمعبود معبود واحد واللغة لغة واحدة والزمن واحد والمجتمع واحد... لكننا نرى النبي (ص) ينتصر في هذه المهمة والامام علي (ع)

يخفق فيها. لماذا؟!

البعض يجيب على هذا السؤال باجابات مروّعة فيقول مثلاً: حصل ذلك لانّ علياً (ع) لم يكن مساوماً ولم يساوم الباطل ولم يقبل بالظلم والجور، بل كان حازماً في رأيه وعمله. انها اجابة محيّرة تهل يقصد هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ انّ رسول الله (ص) لم يكن يتصف بهذه الصفات؟!

صحيح انّ كلّ هذه العوامل ـ عدم مساومة علي وعدم قبوله للظلم والجور و... ـ كانت مؤثرة في (إخفاقه) إلّا انّ هنالك عاملاً آخر يجب ان نعثر عليه وهو العامل الاساسي الذي سبب هذا (الاخفاق).

بعبارة أخرى علينا ان نبحث عن عامل لم يكن موجوداً في زمن الرسول (ص) وكان موجوداً في زمن الامام علي (ع)، واضح انّ هذا العامل هو «دين الطاغوت»، الدين العرفي والقبلي والطبقي، دين عبادة الاوثان، دين الشرك الذي كان آلةً في يد «الملأ والمترفين» الذين كانوا يتمثلون في قبيلة قريش آنذاك.

لقد كان هذا الدين ـ دين الشرك ـ سافراً وواضحاً وصريحاً في زمن الرسول (ص)، فقد كان أبو سفيان وأبو جهل وأبو لهب يقولون بصراحة: يجب ان نحافظ على الاصنام وعلى الكعبة لكي تبقى تجارة قريش قائمة لأنّ تجارتنا وعظمتنا و مقامنا وشرفنا وعلوّنا على قبائل العرب منوط بالأصنام وبالكعبة ولا يمكننا ان ننيل بشيء آخر بل يجب

علينا أن ندافع عن الأصنام والكعبة وسنن الاولين. كانوا يقولون هذه الكلمات بصراحة ولذلك كان الصراع معهم أمراً سهلاً وكان الانتصار عليهم ممكناً وهذا العامل هو السبب في انتصار رسول الله (ص).

أما علي (ع) فانه لم يشهر سيفه على قريش المشركة التي تدافع عن الاصنام بل شهره بوجه قريش المسلمة التي تدافع عن الكعبة... قريش لم ترفع المعلقات السبع في وجه القرآن بل رفعت القرآن على الرماح. لاحظوا ماذا سيصنع دين الشرك؟ انه يجاهد ويفتح البلدان ويبني مساجد عظيمة ليقيم فيها الجماعة ويقرأ القرآن ويجعل جميع العلماء والقضاة تابعين ومدافعين عن شعائر هذا الدين ويتخذ دين النبي (ص) شعاراً له الا انه في حقيقة الأمر وباطنه يمارس الشرك بعينه.

انّ محاربة هذا الشكل من دين الشرك الذي يتستّر بلباس التقوى والتوحيد أصعب بكثير من محاربة الشكل الآخر، ولن يستطيع احد ـ حتى عليّ ـ الانتصار عليه.

في تاريخ المجتمعات والاصلاحات الاجتماعية نرى قادةً وقفوا بوجه العدو الاجنبي الذي بسط سلطانه على بلادهم بشكل سافر فهزموه وطردوه من تلك البلاد بسهولة رغم قوة العدو وعظمته وجبروته لكننا نرى في الوقت ذاته هؤلاء الابطال ـ الابطال الذين هزموا أعظم الجيوش في العالم ـ نراهم يخفقون في مواجهة الاعداء في

الداخل اولئك الذين تسلّطوا على رقاب الناس وكانوا السبب في محنتهم وشقائهم.

يقول رادها كريشنان: «اذا ارتدى الزور والمكر لباس التقوى، ستقع أكبر فاجعة في التاريخ».

اذن عندما اتحدث عن الشرك فاني لا اتحدث عن الدين الذي كان سائداً في الماضي والذي يتجلّى في عبادة بعض الحيوانات او الاشجار او الاصنام بل انّ المقصود من دين الشرك في كلامي هو: الشعور الديني لدى الناس والذي كان لعبةً في يد الملأ والمترفين الذين حكموا المجتمعات عبر التاريخ الطويل.

ونستنتج انّ المفكرين في القرن السابع عشر والثامن عشر والعصر الحاضر الذين قالوا انّ الدين كان عاملاً رئيسياً في شقاء الناس وشقائهم وتثبيت القيد والذلّة والضعف والهوان كانوا محقّين في الإدلاء بهذا الرأي لأنهم كانوا يرون الدين عائقاً عن التطوّر والرقي والحرية والمساواة بين البشر.

وقد اثبتت التطوّرات المذهلة التي حققها البشر بعد اقصاء الدين عن ميدان الحياة صحة هذه الآراء والتصورات بشكل علمي.

غير انّ هؤلاء المفكرين الأحرار الذين سعوا الى تخليص الناس وتحريرهم من هذه الخرافات والسموم المخدرة أخطأوا في تفسيرهم وانّنا ـ نحن المتدينين ـ نرتكب اليوم الخطأ نفسه.

خطأ المفكّرين

الخطأ الذي ارتكبه المفكرون يكمن في أنّهم كانوا ينسبون إلى الدين كل شيء يرونه في التاريخ كالمعابد والجهاد والحروب المقدسة والحروب الصليبية والجهاد الاسلامي و... وانّنا ـ نحن المتدينين ـ كنّا وما زلنا نعاني من نفس الخطأ.

ذكرت آنفاً انّ للاسلام رأياً ثورياً في هذا المجال وانّه لا يقبل أيّاً من هذه الآراء بل يعتقد انّ دين الحق سيتحقق في نهاية المطاف وانّ الاديان التي حكمت عبر التاريخ في شرق العالم وغربه كانت جميعاً من اديان الشرك حتى لو كانت تحكم باسم دين التوحيد، وانّ الانبياء إنما بعثوا لمحاربة هذه الأديان وانّ دينهم الحق يمنح الإنسان المفكّر الحرّ شعوراً بالمسؤولية هو استمرار للمسؤولية التي كان يشعر بها الانبياء انفسهم. يقول النبي (ص): «علماء امتي أفضل من انبياء بني اسرائيل» ويقصد بذلك انّ المسؤولية التي كانت تقع على عاتق الانبياء ستقع على عاتق العلماء (اي المفكرين) بعد نبوة خاتم الرسل (ص).

رسالة العلماء والمفكرين

ما هو الشيء الذي يجب على العلماء ان يستمرّوا عليه؟ انّه محاربة الدين من اجل احياء الدين وتبيينه. انّ رسالة العلماء

والمفكرين هي احياء الدين ـ الدين الذي لم يتحقق في التاريخ ـ اذن يجب ان ينضج الناس ويكون لهم وجدان ديني يقظ واع ويفهموا معنى التوحيد ويدركوا مدى تناقض «دين التوحيد» ودين «عبادة الطاغوت» كي يقدروا على تمييز دين الشرك المتشح بوشاح التوحيد ويرفعوا نقاب الرياء ـ بكلّ اشكاله وفي كل ارجاء المعمورة لكي يصلوا الى دين ليس وليداً للجهل وليس وليداً للخوف، كما يقول الماديون ويصدقون القول!

لقد شجب القرآن مراراً موقف اناس يتعرضون الى عاصفة في البحر فيبكون ويتوسّلون الى الله خشية تحطّم سفينتهم الا انهم ينسون كل ذلك بعد الوصول الى البرّ وبعد ان ينقذهم الله مما كانوا فيه. انّ هذا الدين هو دين ناجم عن الخوف وهو الدين نفسه الذي يتّهمه الماديون في القرن التاسع عشر بأنّه وليد الخوف.

لقد تهجّم القرآن قبل هؤلاء الماديين على اتباع هذا الدين وعلى عبادة الجبناء والعبيد والتّجار وعلى كلّ عبادة تثبت اركان هذا الدين الذي هو وليد النظام الطبقي.. من هم الذي اسّسوا نظام هذا الدين والى اي طبقة ينتمون؟ الذين اسسوا نظام هذا الدين هم اولئك الذين كانوا يقولون للناس: ان كنتم تعانون الجوع وتفتقدون لقمة العيش فاصبروا حتى يجزيكم الله من موائد الجنّة! هذا هو الدين الطبقي الذي ينتشر كالوباء في جسد اديان الحق ـ حتّى في دين نبينا (ص) ـ. هذا هو

الدين الذي يسمّيه علي (ع) بدين العبيد والتّجار ويسمّي العبادة في الدين الآخر الذي يقف بازاء هذا الدين بأنها «عبادة الاحرار» وهي العبادة التي تنبثق عن الحرية والحاجة السامية والعشق والقضية الانسانية المقدسة والعدل والمساواة والقسط ونفي جميع الرذائل والارجاس.

ان الدين الذي يبرر الفقر ويحرص على بقائه كان يبرر العبودية ايضاً وكان يخدّر الناس ويخدعهم لصالح الملأ والمترفين. الدين القائل (انّ الله لا يهتمّ بكظّة ظالم وسغب مظلوم) يجعل من الشعور الديني مادة تخدير تعزل الناس عن المجتمع وتزهّدهم في الامور المادية لصالح اولئك الملأ الذين يستأثرون بها دون غيرهم. انّ الدين الذي انكر دائماً مسؤولية الناس وحقهم في تقرير مصيرهم وبرّر الوضع الظالم عبر التاريخ مستغلاً بذلك معنوية الناس وشعورهم الديني القوي، هو الذي كان يوحي للناس بان الجوع والحرمان والمرض هو علامة على رضا الله ودليل على وجود الأهليّة اللازمة للتكامل والكمال وهو الذي يفتح لكل شخص حساباً خاصّاً بالنسبة للاعتقاد بما وراء الطبيعة ليبدّل الجمع الى افراد والحضور الى انزواء، وهو الذي يسلب من الناس حق الحياة والتمتّع والتملك والتحكّم ويقوم بكل هذا من اجل الطبقة الحاكمة مستخدماً بذلك الوعد والوعيد والتبرير.

انّ القرآن لم يخاطب عدوّاً بشدّة مخاطبته لأتباع هذا الدين،

فعندما يتطرق القرآن الى بلعم بن باعوراء وهو مثال لاولئك الذين حرّفوا الشعور الديني والايمان الفطري لصالح الفئة الحاكمة، نراه يخرج عن سياقه ويقول: ﴿فمثله كمثل الكلب﴾، ما معنى هذه الحدّة في الكلام؟ انها تعني انّ هؤلاء هم الذين ثبّتوا وجود الملأ والمترفين وأبقوا على الظلم والاستثمار والتمييز وانّهم هم السبب في عقر ثمار جهود الانبياء، وهذه العبارات انّما تدلّ على شدة الاستياء من مساومات وأعمال دين الشرك اللّعينة.

أريد أن أستنتج هنا وأقول (وان كان هذا القول يثقل عليكم لكنّي سوف أشرح أبعاده بتفصيل في فرصة أخرى ان أتيح لي ذلك لأنّني اعتقد ان هذا الكلام سيغيّر نظرتنا وحكمنا على الدين والتاريخ).

أريد أن أقول : انّ الرسالة التي حملها المفكرون الأحرار في أوربا في صراعهم مع دين القرون الوسطى والتي انقذوا من خلالها اوربا من التخلّف والرجعيّة هي الرسالة نفسها التي أخذها أنبياؤنا على عاتقهم عبر التاريخ. أنا لا أقول انّ تصوّر هؤلاء كان تصوّراً صحيحاً ولكن اريد القول انّ رسالة هؤلاء المفكرين في الصراع مع التحجّر والانحراف والدين المخالف للناس وحقوقهم هي الرسالة نفسها التي كان الانبياء يحملونها على عاتقهم وحطّموا من خلالها جميع الاصنام واستهدفوا بها جميع ممارسات دين الشرك (دين التبرير والتخدير) وستبقى هذه الرسالة على عاتق كل انصار دين

الحق في المستقبل وعلى مدى التاريخ.

عندما نقول انّ دين الشرك كان مهيمناً على التاريخ وان الانبياء بدأوا حركة تاريخية تصحيحية ضد هذا الدين فاننا سنكون مسؤولين تجاه هذه الحركة وبقائها واستمرارها لانّها حركة تقدميّة تريد ان تغيّر مجرى التاريخ الذي كان ولا يزال تحت هيمنة الملأ والمترفين.

ان رسالتنا هذه لا تتعلق بالماضي وليست رسالة رجعية بل هي استمرار لحركة انبياء دين الحق، الأنبياء الذين نهضوا من بين الناس . الأنبياء الاميّون ـ أي المنسوبون للامّة ـ الانبياء الذين وقفوا بوجه وعّاظ السلاطين واتباع الملأ والمترفين، اولئك الذين كانوا إمّا من طبقة الملوك او من طبقة الاقطاعيين، اي انهم كانوا بدون استثناء اقطاعيين من ناحية وينتمون الى العائلة المالكة من ناحية اخرى.

امّا الشيء الذي لم يدركه المفكرون في اوربا (والذي لا ندركه نحن ايضاً) هو انّهم عمّموا استنباطهم الصحيح عن دين الشرك (الدين الطبقي الحاكم على التاريخ) على الدين ـ بمعناه الأعم الأوسع ـ وليس صحيحاً ان تقول: إن في التاريخ ديناً واحداً، إذ كان في التاريخ أديان عديدة، وهذا الكلام هو نفس كلام «غورويتش» الذي يقول: «لا يوجد مجتمع عام واحد بل هنالك عدة مجتمعات».

اذن يجب أن تفصل كلّ مجتمع عن غيره ثم ندقق فيه ونحكم عليه بشكل خاص.

في التاريخ كان هناك نوعان من الدين كما كان هنالك دائماً صفّان وفئتان متقابلتان على مرّ العصور: الفئة الظالمة وهي الفئة التي تكنّ العداء للحقيقة والعدالة والحرية والحضارة والرقّي وهي الفئة التي كانت مشغولةً بإشباع ولعها وغرائزها المنحرفة في التسلّط على رقاب الناس وحرمانهم من ابسط حقوقهم، وقد كان افراد هذه الفئة من المتديّنين ولم يكونوا من الزنادقة والكافرين.

لقد ايّدت من خلال حديثي حكم المفكرين الاوروبيين على الدّين غير انّي اجد هذا الحكم ظالماً ومجحفاً من هذه الناحية. فانّه ليس من الانصاف ان نضع الدين المجوسي والدين المزدكي[1] والدين المانوي والأديان اليونانية التي ولدت وترعرعت على يد الطبقات الاجتماعية الحاكمة وطبقات الاقطاع المترفة المرفهة، في خندق مع أديان الحق (اديان الانبياء الرّعاة) ثمّ نعمّم حكمنا على كلّ هذه الاديان وننظر اليها نظرة واحدة. وليس من الانصاف ان نضع دين الحق وانصاره الذين كانوا في جهاد دائم مع تلك الاديان (المنحرفة) والحكومات التابعة لها والذين قُتلوا وسجنوا وعذبوا على يد تلك الحكومات، في جبهة واحدة مع الأديان الأخرى التي حكمت التاريخ.

(١) ظهر «مزدك» في الطرف الشرقي من نهر دجلة في بلدة اسمها (مادرايا) وذلك في زمان الملك (قباذ) والد (أنوشروان) الذي بدأ حكمه سنة ٤٨٨ م، وقد كان دينه إصلاحاً لدين (ماني). (المترجم).

اننا لو أصدرنا حكماً واحداً على كلّ هذه الأديان نكون قد حكمنا على فئتين متناقضتين بحكم واحد وبالطبع لن يكون هذا الحكم حكماً علمياً ولا منسجماً مع العقل والواقع والأخلاق أيضاً.

أيها المفكرون أين أنتم؟ هل يمكن الحكم على شيء بالترجمة؟ كيف حكم الاوروبيون على دينهم؟ انّهم ناضلوا وعملوا ودرسوا وحققوا ثلاثمئة عام من الزمن وادركوا في نهاية الامر انّ النصرانية هي التي سببت كل هذه المصائب لبلادهم. حسناً انّهم ترجموا ذلك ونحن ايضاً نردد نفس هذه الترجمة الفكر لا يعني ذلك، وإذا حصلنا على مفكّر بهذه الطريقة فانه سيكون مفكّراً ترجمانياً وليس مفكراً حقيقياً. سوف اتطرق فيما بعد الى طريقة صنع المفكر في المجتمعات الاسلامية[1].

كيف يمكن الحكم على الدين الذي صنع أبا ذر بنفس الحكم الذي نحكمه على الدين الآخر الذي جاء ليبقي على كفّة الظّالم وسغب المظلوم والذي كان مسبباً للفقر وحامياً له؟

أبو ذر، وجه الاسلام الطاهر الكامل العريق على يد النبيّ لم يكن يملك شيئاً ـ لا مالاً ولا منالاً ولا ثقافة ـ ولم يتأثر بشيء بل كان روحاً انسانية نقيّة خالية من كلّ شوب، فكلّ ما كان عند هذا الرجل هو من صنع هذا المعمل وهذا الكتاب وهذه الرسالة. يقول أبو ذر: «عجبت لمن

(١) راجع سلسلة التناجات (الكراس رقم ٢٠).

لا يجد قوتاً في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه!».

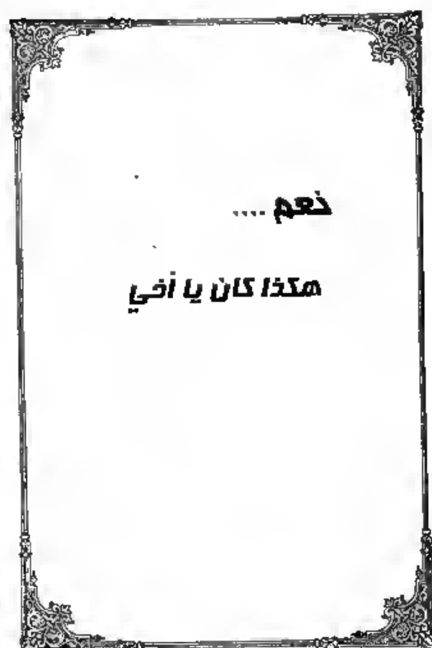
عندما كنت اتحدث بهذا الحديث في اوربا ولم اذكر اسم صاحبه كان البعض يتصوّر انّ هذا الكلام هو كلام «برودن» لشدّة تطرّفه او كان البعض يتصوّر انه من كلام (داستا يوفسكي).

يقول داستا يوفسكي: «اذا حدثت جريمة قتل في مكان ما فإنّ اولئك الذين لم يكن لهم اي اشتراك في هذه الجريمة ستكون ايديهم ملطّخة بدم القتيل ايضاً» وهذا كلام صحيح. انظروا الآن الى كلام أبي ذر (الذي لم يكن متديّناً فحسب بل كان الدين بعينه فقد كان أبو ذر ديناً مجسماً ولم يكن اي شيء آخر فلّم يتأثّر بالمذاهب المختلفة ولم يعش بعد الثورة الفرنسيّة، بل عاش بين قبيلة غفار).

يقول أبو ذر: «عجبت لمن لا يجد قوتاً في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه» فلم يقل كيف لا يخرج على من سبّب له الفقر، ولم يقل كيف لا يخرج على من استغلّه، ولم يقل كيف لا يخرج على الفئة المستغلّة بل يقول: كيف لا يخرج على الناس كلّ الناس! لماذا؟ لانّ كلّ من يعيش في هذا المجتمع وان لم يكن من المستثمرين فانّه مسؤول عن الفقر والجوع لأنّه يعيش في مجتمع يوجد فيه الفقر والجوع. كم هو مسؤول الى درجة يكون فيها عدواً مهدوراً للدم، لانّه شريك للمستثمر الذي سبّب الجوع، أي أن الناس يعتبرون مسؤولين جميعاً وبشكل مباشر عن الجوع والفقر.

والأجمل من هذا هو انّ كلام أبي ذر لا يشبه ميثاق الامم المتحدة الذي يقول: «يحقّ لكل شعب يقع تحت الضغط والغصب القيام لإحقاق حقوقه». فأبو ذر لا يقول: يحقّ لك ان تفعل هذا ولا يقول: يحقّ لك القيام ضدّ اولئك الذين سبّبوا لك الجوع، حتى انه لا يقول: يحقّ لك ان تشهر سيفك على كلّ الناس بل يقول: «عجبت كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه».

حينئذ أليس من الاجحاف والجهل المطلق ان نحكم على هذا الدين الذي ينظر الى الناس وحياة الناس هكذا نظرة بنفس الحكم الذي نحكم به على الدين المسبّب والمبرّر للجوع. انه لأمر مضحك ومبكٍ في الوقت ذاته.



نعم ....

هكذا كان يا أخي

اريد أن أتحدث اليوم عن نفسي. لا لشيء الا لأني أريد ان أتلو عليكم خاطرة! خاطرة ترتبط بحدّ ذاتها بي وبشخصيتي كممثل لطبقة ومجتمع ومدينة وتاريخ. أنا ـ من جهة ـ أنتمي الى شريحة متفقة بثقافة معاصرة تعلمون طبيعة المناخ الذي نعيش فيه ومستوى ارتباطها بالدين، وطبيعة الأهداف التي تنشدها وماهية اللغة التي تتحدث بها. وانا من جهة اخرى، جئتكم من بلاد نائية، صحراء قاحلة لا أثر فيها للعمران والرفاهية والعيش الرغيد ؛ حياة بؤس وشقاء وفقر وعوز. وانتمي ـ من جهة ثالثة ـ الى طبقة تتشرف بأن ليس فيها دم لشريف او نبيل من اولئك الذين صنعوا شرفهم بالسيف والذهب.

اشعر في قرارة فطرتي ان آبائي وامهاتي جيلاً بعد آخر ينحدرون من الفقر والبؤس الى ان يغيبوا في عمق التاريخ ـ وما اسرع غيابهم اذ لا يذكرهم احد في التاريخ سوانا نحن ابناءهم. فالتاريخ عدوّ لدود لأجدادي وأجداد أمثالي.

ومع ذلك، فقد وقع اختياري على (الحضارة) كحقل علمي اواصل فيه دراستي وتحصيلي. وكنت على الدوام شغوفاً بآثار

الحضارة والتمدن البشري، معتبراً هذه الآثار من دواعي الفخر والاعتزاز بالنسبة للانسانية جمعاء، وحينما وفدت على مدينة أو بلد سرعان ما أبادر بالذهاب الى الأماكن التي توجد فيها آثار قديمة لأهل ذلك البلد لأطّلع عن كثب على حجم الانجازات والدور الحضاري الذي لعبوه في بناء الحضارة الانسانية، وما هي الروائع التي أبدعوها في الماضي السحيق.

في اليونان، وحين ذهبت الى معبد دلفي وشاهدت أبنيته العظيمة، بهرتني كل تلك العظمة والجلال، وكنت اذا سافرت الى آسيا واوروبا وافريقيا أعمد مباشرة الى الآثار العظيمة لتلك الأصقاع حيث تمثل بالنسبة لي مظهر قوة تلك الشعوب ومستوى نبوغها في مجالات الفن والعمران والصناعة، وتعكس مدى رقيها الحضاري، فكل واحدة من تلك الروائع العمرانية هي بمثابة كنز لا يقدّر بثمن يمثل حصيلة كفاح النوع البشري على وجه البسيطة ويعكس مدى انتصار الانسانية في صراعها الدؤوب مع الطبيعة على مرّ التاريخ.

في روما، متاحف الفنون والإعمار، والمعابد الشاهقة والقصور الفخمة، وفي الشرق الأقصى كالصين وكمبوديا وفيتنام، جبال شامخة شيّدتها أيادٍ بشرية ونحتتها أنامل اناس سهروا عليها الليالي وأجهدوا انفسهم واعصابهم من أجل تحويلها الى معابد لآلهة السماء، ومن يمثلها على وجه الأرض من الكهنة ورجال الدين. كانت هذه الأمور في

نظري دواعي فخر واعتزاز بالتراث الانساني وكانت تمثل لي أعز المشاهد والمناظر الخلابة التي أطير زهواً ودهشة لدى التمعّن فيها واجالة النظر في معالمها..

...الى ان قررت صيف هذا العام السفر الى افريقيا، يشدّني شوق عارم الى رؤية الاهرام الثلاثة في مصر. وعلى حين غرّة انهار كل ذلك الشوق وتبدّدت كل الأواصر التي كانت تربطني بآثار الماضي وتشدّني اليها بقوة، وجرفت مياه النيل معها كل التصورات التي كنت أحملها في رأسي واكتشفت ان كل ما كنت أؤمن بأنها مظاهر تمدّن وتحضّر انساني ما هي إلّا سراب خادع دام آلاف السنين، وقد بات الآن في نظري هشيماً تذروه رياح مصر!

ما أن وطأت قدماي أرض مصر خلال ايام تموز، حتى عزمت على زيارة أثرها التاريخي العجيب، الأهرام احدى عجائب الدنيا السبع، وكدت أطير فرحاً اذ سنحت مثل هذه الفرصة لي. استصحبت احد الأدلاء لأستفيد من توجيهاته وتوضيحاته حول الاهرام وطريقة بنائها وتاريخها واسرارها وسائر جمالياتها وفنونها الخفيّة!

أشار الدليل الى تلك البناءات الشاهقة وبدأ يحكي قصتها: قبل زهاء خمسة آلاف عام حمل (العبيد) ثمانمئة مليون صخرة كبيرة تزن الواحدة منها طنين -كمعدّل- وجاؤوا بها من أسوان حيث السدّ العالي المعروف، الى القاهرة ليشيدوا بها تسعة أهرام، ستة منها صغيرة وثلاثة

كبيرة هي التي اكتسبت الشهرة العالمية الفريدة قبل خمسة آلاف عام، حُملت ثمانمئة مليون صخرة على طول مسافة تبلغ (٩٨٠) كيلومتراً من أسوان الى القاهرة ورصفت على بعضها لتشيّد بواسطتها مبانٍ ضخمة لتصبح فيما بعد أضرحة لأجساد الفراعنة وزوجاتهم بعد تحنيطها بالموميا، المصرية!

لقد صممت الغرفة المركزية للأهرام من ستّ قطع صخرية كبيرة تنهض أربع منها كجدران للضريح والخامسة بمثابة قاعدة والسادسة ولك ان تتصور حجم ووزن الصخرة التي كان يتعين عليها ان تتحمل ملايين الصخور الاخرى المتراكمة الى اعلى الهرم وتصبر وتقاوم خمسة آلاف عام لحدّ الآن!

اخذتني الدهشة وأنا انظر الى هذا البناء الرهيب، وفجأة وقعت عيني على مجموعة صخور مركومة فوق بعضها على مسافة تبعد حوالي (٤٠٠ ـ ٥٠٠) متر، فاستفسرت من الدليل عنها، فلم يكترث بسؤالي وأجابني: لا شيء انها مجرد صخور! قلت له: انها مركومة على بعضها، ولا تعني شيئاً؟ اريد أن أعرف سرّ هذه الصخور. كان يتفادى الاجابة عن سؤالي وشعرت انه يتحاشى أن أطلب منه الذهاب الى ذلك المكان. فالجو كان حاراً والهواء لافح والأرض صخرية ذات تضاريس وكان من الواضح ان احداً لا تحدثه نفسه بالذهاب الى ذلك المكان.

ولكن، ما ذنبي وأنا الذي علمتني التجارب ان اركّز دائماً في

بحثي واستقصائي سواء في الكتب أو الآيات والروايات أو الآثار والأفكار، على كل ما هو مغيّب ومهجور، ولطالما عثرت على المطالب القيمة في أماكن وموارد مهملة لا يتمّ التعرض لها إلّا نادراً، ولا يمرّ عليها إلّا مرور الكرام. ذلك ان القيّم اما ان تكتم اذا قُدر على ذلك، وإلّا فيتمّ تشويهها!

عزفت عن الأهرام وتوضيحات الدليل التي بوسع الجميع ان يعثروا عليها في الكتب والمجلات، وأصررت عليه بأن يكتفي بالكشف عن ماهية تلك الصخور، فأجاب على مضض: انها أخاديد حفرت في بطن الأرض لعدة كيلومترات. قلت له: لماذا؟ قال: انها مقابر العبيد الذين شيّدوا هذه الاهرام، فعلى مدى مئة وثلاثين عاماً، وبشكل يومي كان العبيد يجرّون هذه الصخور لمسافة الف كيلومتر وكانت أرواحهم تزهق تحتها زرافات زرافات. غير ان نظام الرقيق ـ الذي عطّل اختراع العجلة والبكرة على حدّ قول «شوارتز» لأن وجود العبيد بكثرة كان يغنيهم عن الحاجة الى اختراعها ـ هذا النظام كان يلقي بأشلاء العبيد الممزقة في هذه الأخاديد، ويبادر الى استخدام غيرهم.

ويومياً، كانت التقارير ترفع الى فرعون بموت مئات العبيد، ومن ثم يؤتى بأباد جديدة: من أفريقيا السوداء لم تتعود بعد على قساوة الظروف والبيئة، فترتفع معدلات الضحايا والوفيات، وكان الخط البياني يرتفع وينخفض حسب فصول السنة وبحسب انتشار الأوبئة

والطاعون. ولكن على اي حال فقد كانت الاحصائيات مروعة وتكشف عن عملية اباد: جماعية لأولئك العبيد، يضاف الى ذلك عوامل اخرى من قبيل تقلّب مزاج فرعون الذي كان مبتلى بحالات نفسية خاصة وامراض خفية، وكذلك أمزجة اوباب العمل الذين كانوا يتسابقون في اضطهاد العبيد والتفنن في امتصاص اكبر مقدار ممكن من العمل من اولئك المساكين دون وازع من ضمير أو قانون.

ثم إنّ فرعون كان متديناً يؤمن بما وراء الطبيعة، وكان ذلك داعياً لرغبته في ان يدفن هؤلاء الى جواره وعلى مقربة من هرمه لكي يواصلوا خدمته في مماتهم كما كانوا يخدمونه في حياتهم.

قلت للدليل: اتركني وشأني، فاني لا اطيق بعد هذا تحمل وجودك ولا وجود هذه الاهرام الخبيثة، سأذهب بنفسي.

ذهبت... لم تكن ثمة مسافة طويلة بين اهرام الفراعنة وأخاديد العبيد، غير ان الطريق كان صعب العبور. والصخور تشدخ اقدام العابرين لتخلّف وراءهم خطوطاً من الدماء، لم تكن المسافة بأكثر من عدة اقدام، ولكن المسافة ـ دائماً ـ لا تتجاوز الأقدام بين الجلاد والشهيد[1].

(١) لعلّها اشارة الى دفن الامام الرضا (ع) الى جوار هارون الرشيد في مشهد بايران. (المترجم)

جلست على مقربة من الأخاديد، وما لبثت قليلاً حتى شعرت وكأنْ رابطة قرابة وصلة رحم تربطني بهؤلاء التعساء، وان بيني وبين تلك الأهرام ومن فيها كراهية ونفرة! لقد عثرت على ذاتي وأنا أطلّ على قبور أرحامي وأقربائي، وكأنني أعرفهم فرداً فرداً، أو كانت لي صحبة مع كل واحد منهم أو شراكة في حياة ومصير. كنت واحداً من أعضاء هذه الأسرة البائسة، وما أزال!

صحيح انني جئت من بلاد وهم قدموا من أخرى، وانا من عرق وهم من آخر، لكنها تصنيفات شيطانية تهدف الى تقطيع الانسان ارباً اوباً والمثلة به، وجعل الاقرباء اجانب والاجانب أقرباء..

غير انني اليوم أمسيت سليلاً لهذه الطائفة من بني البشر بعيداً عن مقتضى تلك التصنيفات والتقسيمات المقيتة، هم اقربائي وانا الآن أواسيهم. وما أن التفتُ مرة أخرى صوب الأهرام اذا بي أشعر بهوّة ومسافة شاسعة تفصل بيني وبين تلك العظمة والجلال والبهاء، بل كأن بيننا عداوة وكراهية، وحقداً على ذلك الفن والتمدن والحضارة، لقد أدركت ان كل الآثار العظيمة على طول التاريخ والحضارات المجيدة لم تقم إلّا على اشلاء أسلافي!

سور الصين العظيم، وجميع القلاع والأبراج العالية وما الى ذلك من الآثار الشامخة، هكذا وأنت النور، صخرة صخرة ولبنة لبنة من دماء اجدادي ولحمهم وعظمهم.

لقد رأيت بأمّ عيني ان الحضارة والتمدن لا يعنيان سوى الحقد والقمع والتنكيل والاستغلال وأسر البؤساء ومصّ دمائهم... ليسفر عن ذلك بناء شاهق مؤلف من ثلاث طبقات هي عبارة عن عصارة الظلم والجور عبر آلاف السنين وقد أرسيت دعائمها على أكتاف اخواني واخواني. مكثت جالساً بين تلك الصخور المتراكمة، ورأيت هؤلاء المدفونين في تلك الحفر وهم يخاطبونني انا خريج جامعات العلوم الانسانية في اوربا واستاذ تاريخ الحضارات في جامعات ايران ليعطوني درساً من اول صفحات كتاب العلوم الانسانية. كان ذلك أوّل درس في التاريخ وقد علموني فيه ماذا تعني الحضارة...

اخواني علّموني ان كل ما نتعلمه باسم الحضارة والتمدن والاخلاق انما هو كذب محض، وان ما يدرس في الكتب والحصص ليس سوى الفرعونيات والقارونيات والبلعميات، وان التاريخ الحقيقي يمتدُ على المسافة ما بين الاهرام وهذا المكان، وان الحضارة والمدنية والاخلاق والتاريخ وجميع العلوم الانسانية لا تدرس لا في المدارس ولا في المعابد بل هاهنا تحت هذه الصخور، هاهنا تجدونها مدفونة مع اخواني..

وتلك الاهرام الثلاثة التي لم تعد في نظري سوى الثالوث المشؤوم: الاستبداد والاستعمار والاستحمار، هي التي افتعلت هذه الفاجعة لتكون دليلاً على سيرة الانسان المظلوم وشاهداً على مصيره المحتوم.

اشكركم يا اخواني المدفونين هاهنا، لقد علمتموني أن كل ما تعلّمته في السابق من اخلاق وفنون وعلوم وتاريخ انما هو من صنع هذه الاهرام الثلاثة ومن يرقد فيها، من صنع فرعون والملأ والسحرة. ها أنذا الآن أدفُنُ تحت هذه الأهرام كل ما تعلّمته منها، وأبدأ من جديد، وسوف اتجه فوراً من هنا الى (منى) ارض العشق والقتال، لأرمي الأبالسة الثلاثة أو قل الوجوه الثلاثة لإبليس، فنحن جميعاً يا اخواني ضحايا لهذه الأرباب الثلاثة التي تعلّمنا منها تاريخنا واخلاقنا وديننا، والواقع ان هذه الثلاثة هي التي دفنت التاريخ والاخلاق والدين تحت هذه الصخور.

عدت الى المدينة، وعزفت عن التجوال فيها خشية ان تنطبع في مخيلتي صورة أخرى غير صور: تلك الصخور المكدسة. لم اكن أرغب في أن أفكر بغير ما تعلمته من تلك الصخور مما وجدت فيه تمام وجودي. ذهبت مباشرة الى غرفتي وجلست فيها اتصفح وأستعرض وجوه أخواني الجدد، مئة وثلاثون عاماً يمعدل ثلاثين الف من اخواني، من اسوان الى القاهرة، ذهاباً واياباً، قبل خمسة آلاف عام.

نعم! خمسة آلاف عام مضت. كان فيها اخواني تحت نير سياط الجلادين وصخورهم، ولاشك انهم لا يعلمون ماذا حصل بعد خمسة آلاف سنة، ولا شك ايضاً انهم يريدون ان يعلموا... تناولت قصاصة ورق وكتبت رسالة الى واحد من مئات الآلاف المقبورين في ذلك

الأخدود، وقدّمت له تقريراً موجزاً عما جرى علينا في غضون خمسة آلاف سنة، خمسة آلاف سنة لم يعد موجوداً فيها، ولكن الرقّ والعبودية استمرا خلالها بأنماط شتى... جلست وشرعت أكتب:

«رحمت أنت، ونحن لم نزل نبني الحضارات العريقة وننهبأ لأجل فتوح وافتخارات ومآثر».

كانوا يقدمون الى قرانا وضياعنا ويجروننا كالبهائم وراءهم، وذلك لنصنع قبورهم، واذا ما انتهينا من بناء تلك القبور العظيمة كان المجد والعزّ لهم وحدهم ومتى ما انطفأ بصيص رمقنا الأخير في هذه العبا: خلال هذا العمل المهلك. غدونا احدى صخرات تلك المقبرة.

كانوا ـ تارةً ـ يأخذوننا الى الحرب، حرب على اناس لم نعرفهم ولم نكرههم من قبل، حتى على رفاقنا ومواطنينا واقربائنا.

كانوا يدفعوننا الى الحرب عنوة: في حين ان آباءنا وامهاتنا الذين خط الدهر خطوطه السوداء على سيماهم ـ ينتظروننا بفارغ الصبر، ولكن انتظارهم هذا ظلّ بلا جدوى.. ولا جواب..!!

هذه الحروب ـ على حد قول أحد العلماء ـ كانت عبارة عن: اشتباك بين فريقين لا يعرف احدهما الآخر[1].

كانوا يأخذوننا إما لنقتل، ان لم يكن النصر حليفنا فالكوارث

(١) تفرسوا في هذا الحديث جيداً لأنه يوضّح مسار التاريخ كلّه ـ المؤلف.

والنكبات والخراب والمدن المتهدمة والمزارع الجرداء، نصيب من نصيب آبائنا وامهاتنا، وان انتصرنا كان الفخر والعزّ والمباهاة يسجل للغير، ونحن العرائس المتحركة خلف الكواليس.. لم نحظَ بشيء من هذا النصر.

اخي! نهضة وتحول عظيمان ظهرا بعدك، الفراعنة والجبابرة وطغاة التاريخ بدّلوا طريقة تفكيرهم، لهذا فرحنا!! حيث ان القدماء، كانوا يعتقدون بأن ارواحهم خالدة وبعد موتهم ستظلّ تحوم حول مقابرهم، ومتى ما بقي الجسم سالماً ستظلّ رابطة الروح معه كما هي قائمة، ولأجل هذا الاعتقاد ارغموني وارغموك على رصف هذا الصخور الهائلة الممينة.

ولكن مع مرور الزمن أمسَوا أكثر تنوراً واصبحوا لا يفكرون بالموت من بعد، لهذا تركوا تلك العقائد البالية وكانت لنا ـ هذه ـ بشرى سارة، بشرى النجاة من بناء تلك القبور وجلب ثمانمائة مليون صخرة من مسافات آلاف الكيلومترات ورصفها على بعض..!!

ولكن يا أخي!! لم تعمّر هذه البشرى طويلاً، اذ تسربوا كالنمل الى قرانا وأجبرونا على العمل بعدك، ومرة أُخرى تكررت نفس المأساة! ومرة اخرى حملوا على هاماتنا واثلاثنا الصخور ولكن لا لقبورهم هذه المرة، بل لقصورهم وأسوارهم العظيمة، تلك القصور التي امتزج بناؤها بدمنا ولحمنا.

أخي: مرة أخرى كنا نحوم كبقر الناعور في دوامة البأس، متلهفين الى نافذة يطلّ منها النور، فكانت نهضة «أنبياء عظام» زرادشت العظيم، ماني[1] الكبير، بوذا الكبير، كنفشيوس الحكيم، لاور تسوا المتعمق... كانوا آمالاً تبرعم في الطريق، لابد ان الآلهة بعثت هذه الشخصيات العظيمة لإنقاذنا نحن المحرومين والمستضعفين من الذل والعبودية والهوان وليحلّوا الايمان والعبادة محل الظلم والرق.

ولكن يا اخي: هؤلاء المبعوثون من طرف الآلهة كانوا يقدمون دون ان يأبهوا بنا ولم يذكروا اسماً لنا، كانوا يذهبون الى قصور الحكام مباشرة، فكنفسيوس الحكيم مثلاً، الذي كان يتحدث عن المجتمع والانسان، وكنا نصدق ما يقول، لقد ذهب الى ووزاوة «لو» وأصبح نديماً لأمراء الصين.

(١) ماني: اسم رسّام ظهر في زمان (أردشير) وبعضهم يقول بل في زمان الملك (بهرام)، ظهر بعد عيسى (ع)، وقد قتله (بهرام بن هرمز). اسم كتابه (أرژنك) وعقائده مزيج من عقائد الزردشتيين واليهود والمسيحيين. يقال ان أمه من نسل الملوك الأشكانيين، وأباه من رجالات (همدان)، هاجر إلى (بابل) وولد (ماني) في تلك البلاد عام ٢١٦ م، ادعى النبوة بعد ان اطلع على الأديان الموجودة وسمّى نفسه (فار قليط) الذي أخبر عنه المسيح. ومن أقوال ماني: «يبشر الأنبياء بأوامر الإله أحياناً من الهند بواسطة (زردشت) والآن أرسلني الله لنشر دين الحق في بابل» و «أرسلني الله نبياً من بابل حتى تصل دعوتي العالم أجمع». (المترجم).

وبوذا ـ حيث كان من كبار أمراء «بناوس» قد قاطع الجميع وغار في نفسه ليذهب الى «نيروانا» ـ التي لا أعلم أين هي ـ ولهذا نراه معتكفاً ليخرج بأفكاره العظيمة الى الجياع...!!

وزرادشت الذي كانت آذربيجان محل بعثته ـ وبدون أن يكلمنا نحن المحرومين والمعذبين ـ ذهب مباشرة الى بلخ فمكث في بلاط كشتاسب.

و«ماني» الذي تحدث الينا عن النور وهجم على الظلمة، ظل يهمس في آذاننا ـ نحن المسجونين والمحفرين في الأرض ـ عن الظلم والظلمة، وهكذا لم نزل نتحايل على انفسنا ونقول:.. اجل هذا هو المنجي الذي ظهر لإنقاذنا، ولكنه افصح عن لب كلامه ضمن كتاب اهداه الى الملك شابور الساساني، هذا وقد القى خطاباً اثناء حفل تتويجه وكان يفتخر بمرافقته الى سرنديب والهند وبلخ ومن ثم نراه يبرر هزيمتنا بهذه الأنشودة:

«كل من يهزم ويدحر فهو من ذات الظلمة».

«وكل من يفوق ويتنصر فهو من ذات النور».

ولهذا نرانا ـ نحن المهزومين المستضعفين ـ نملأ طول وعرض التاريخ دوماً.

اخي: ذهبت «أنت» ضحية لهذه الأبنية الشامخة و«أنا» منذ

رحت «أنت» صرت قرباناً لهذه القصور الشاهقة. وعلى حين غرّة وجدت نفسي تحت قيود ونير من هم خلفاء فرعون وقارون ـ الذين يبيعونني ويشترونني متى ما طاب لهم ذلك ـ. اجل يا اخي... لقد ظهرت بعدك طبقة رسمية تدعى «الكهنة»، ففي فلسطين وايران ومصر والصين، بل وفي كل مكان يوجد انسان محروم مثلي.... كان لابدّ لي أن أجرّ على ظهري الصخور لأبني بها تلك القصور الفخمة والمعابد والهياكل الرفيعة.

وبعد هذا وغير هذا، فان «خلفاء الاله» وهذا «النبي» كانوا يطوفون وقايتنا بقلادات أخرى... فباسم الزكاة يسرقون وينهبون وتحت شعار الجهاد يبعثونا الى ميادين الحروب، حتى انهم كانوا يرغموننا على ان تقدم اطفالنا قرابين على مذبح المعابد والهياكل وتحت ارجل الاصنام.

أخي، أتدري ما أعانيه ـ لا؛ فان الهياكل كلها عامرة بدم اولادنا الابرياء... وهكذا أصبحنا ـ مرة أخرى ـ لعبة بيد الآلهة اضافة الى وارثي فرعون وقارون.

اجل... اغتصبت الكهنة المجوس أغلب أراضينا وهكذا فعلت الكنائس حيث كنا عبيداً بل اداة كادحة لهم.

دفعونا لتشييد المعابد والقصور الضخمة في الروم والهياكل العظيمة في الصين... وكان الهلاك من نصيبنا... أما النصر والعزّ فللكهنة

والقسسة وتجار الدين ووارثي فرعون وقارون...!!

و«أنا» الذي عشت بعدك آلاف السنين وشاهدت حتف رفاقي واخواني ولهذا انتابني شعور بأن الآلهة أيضاً تكره وتبغض العبيد. ووو بدأ رويداً احسست بأن الدين هو في حد ذاته قيد قيّدونا به والكهنة والقسسة ورجال الدين هم أنفسهم وسائل أخرى لاستعبادنا واستحكام هذه القصور وتلك القبور.

ومرّت الأيام... والحكماء والعلماء العظام ـ الذين كان تفكيرهم أفضل منا ـ كارسطو القائل بأن: بعض الناس ولدوا لأجل أن يكونوا عبيداً وبعضهم جاءوا الى هذه الحياة ليكونوا سادة ونبلاء اشرافاً... لهذا أيقنت بأننا ما جئنا إلاّ لنكون رقيقاً وليس لنا حظ غير هذا، وحظّنا ما عساه ان يكون سوى الظلم والجور والضرب والتحقير والعبودية، ولا شيء غير هذا...!!

ولكن يا أخي: فجأة وعلى حين غرة علمت ان رجلاً هبط من جبل وركن الى معبد مزمجراً: «اني رسول الله»...

ومرة أخرى، كادت ارتعاشة مهيبة تحبس انفاسي.. هل ان خدعة اخرى تكمن وراء هذه الصيحة.. ولكن فتح فاه فقال ـ وانا لا أصدقه ـ:

اني بعثت من قبل الله القائل: ﴿ونريدُ أن نمُنَّ على الذين



استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾[١].

يا للعجب...!! كيف اصبح الاله بكلم العبيد والمستضعفين؟ ويبشرهم بالنجاة وبعدهم بالزعامة والقيادة، ويجعلهم وارثي الارض؟.. كدت لا اصدق، قلت: هو الآخر كباقي المبشرين والمصلحين و«الانبيا،» في ايران والصين والهند.. لابد انه احد الامراء النبلاء المبعوثين لتنفيذ القدرة والسيطرة وتكديس القوى ضد الشعب. قالوا: لا، انه يتيم والكل قد شاهدو،مراراً وهو يرعى الاغنام ورا، هذا الجبل، قلت: ماذا اسمع...!! كيف هي مشيئة الاله هذ، المرة... يصطفي رسوله من بين الرعا،؟! قالوا: اجل، هو آخر حلقة من سلسلة الانبيا، الرعاة، حيث أن أجداد، كلهم كذلك. ذابت ايعادي في ظل رجفة ملؤها شوق صاوخ وصبحة خرسا،، إذا ان نبياً يبعث «منا» ولأول مرة...!!

آمنت به وايقنت برسالته لأنه جمع شمل اخواني ورفاقي الفقراء حوله.

بلال، العبد الحبشي، سلمان، أسير من اسراء ايران، أبو ذو، البائس المجهول وسالم، غلام زوجته خديجة... الخ، كل هؤلا، البؤسا، البائسين، كل الاسراء والعبيد وكل المظلومين والمشردين اصبحوا قاد، قومهم.

(١) القصص: ٤.

صدقته وآمنت به لأن قصر، ! كان ذا حجرتين أو ثلاثة صنعت من طين حيث اقام هو بنفسه البناء.. وبلاطه لم يتعدَّ حفنة من الاخشاب المتراصفة على بعض من سعف النخيل!! اجل، هذا كل ما كان يملكه ويؤثر به على معايش الناس من جراء بناء قصر، هذا!! هكذا كان وهكذا رحل.

جئت... هارباً من الكهنة المجوس... من الظلمة الذين كانوا يسوقوننا كالبهائم الى حروبهم التافهة ونزعاتهم الطائشة...

فررت واعتصمت به.. قدمت الى مدينته وعشت معه ومن حولي رفاقي الرقيق والاسرا، والمحرومون وجميع مستضعفي العالم... قضيت أيامي معه حتى واح في غفوته السرمدية تاوكاً ورا،، شمسنا خلف سناو داكن.

أخي: وفجأة وأيت المعابد العظيمة تشق عنان السما، مرة اخرى وتعتلي باسم ذلك النبي الأمي في حين ان السيوف التي كتبت عليها آيات «الجهاد» كانت تهدد وجودنا في كل آن...

ومرة أخرى امتلأت بيوت المال والخزائن بأموال نهبوها وسلبوها وانتزعوها عنوة منا... ومرة أخرى جا، خلفاء هذا الرسول ومسخوا القرآن واخذوا شبابنا عبيداً لقصورهم، باعوا امهاتنا في الأسواق البعيدة وقتلوا رجالنا باسم «الجهاد» في سبيل الله، واستولوا على كل ما نملك باسم «الزكاة».

بأسٌ قاتل دبّ في قلبي... اجل يئست... لا ادري ما افعل؟ لقد ظهرت سلطة جديدة تختفي خلف رداء التوحيد نفس الاصنام التي حطمها ذلك «الرجل» وتوقد في مساجد «الله» نار الكذب والخديعة... ومرة اخرى تكررت نفس المأساة، تكررت نفس الوجوه الفرعونية القارونية التي تعرفها انت يا أخي جيداً... اخذوا باسم الله وخلافة رسوله يضربون الناس بسوط الدين... ونحن ــ مرة اخرى ــ منحنا في ازقة العبودية لنبني مسجد دمشق العظيم!.. ومرة أخرى دوت هنا وهناك صيحات تدعو الى الحرية... قصورنا دوة في نوعها وطرازها... مساجد محيرة للعقول.. كالقصر الأخضر في دمشق وداو خلافة الف ليلة وليلة في بغداد... كل هذا كان بثمن دمنا وحياتنا ولكن هذه المرة... باسم «الله».

ومرة أخرى صرت لا اصدق ان هناك خلاصاً ونجاة...!! لان العبودية والموت الأسود كانا مقدوران لنا.

أجل... من كان ذلك الرجل؟! ترى هل كان يخفي خلف تلك الرسالة اطروحة لخداعنا؟! كان مؤسس هذه الايدلوجية التي عدّوْنا في دهاليزها وزنزاناتها كالخرق البالية... اجل كان هو الداعي لحرق مزاوعنا وشنّ الغارات على ممتلكاتنا وقتلنا كالذباب... لا.. كلّا... ف «أنا» و«هو» أمسينا ضحايا...!!

لا أدري... لم يكن هناك أمامي سبيل آخر أسلكه... لمن

النجي،؟ الى الكهنة المجوس!!؟ كيف ذلك؟ الى المعابد والهياكل التي كانت ولا زالت قائمة على اساس الظلم والتزوير؟!! الى القادة.. الى كل الذين ينادون بالحرية والوطنية؟ لا... لأن هؤلاء كلهم فقدوا مكانتهم ومناصبهم وسطوتهم الغابرة بعد صيحة هذا «الرجل» لهذا تراهم يتكالبون لاجل احياء ذلك التراث البالي المتهرىء من جديد.. وبعد هذا وغير هذا... الى أين أقدر أن أذهب...؟!! الى المساجد؟ ولكن ما الفرق بين هذه المساجد وتلك المعابد..؟!

وبغتة ــ يا أخي ــ رأيت السيوف التي حفرت عليها آيات «الجهاد»... والمساجد التي كانت طافحة باسم «الله»..... والمآذن الي كان يدوي فيها اذان «التوحيد»... والوجوه المعروفة التي جلست على سرير الحكم باسم الخلافة وتحت شعار ــ الامامة والاقتداء بنهج ذلك «الرسول»... رأيت ــ يا أخي ــ كل هذا مرة واحدة وهي تلتقي في بؤرة واحدة وذلك لأجل جرّنا في اوقفة الاستعباد وساحات الحروب والهلاك والدماء والتكفير و...و...

لابدّ أن تعلم يا أخي أن واحداً آخر «منا» أصبح ضحية لهذه الجرداء القاتلة في مسجد يذكر فيه اسم «الله»، أجل إنه الامام علي، قريب وحبيب ذلك «الرسول» فقد اغتيل في محراب «الله»... ولاقى الظلم والعدوان هو وآل بيته قبلي وقبلك وقبل جميع المعذبين والمحرومين على امتداد التأريخ، حاربوه وغاروا على بيته باسم

الجهاد والزكاة...

وذلك «الكتاب» الذي لا ريب فيه، قبل ان يصبح اداة لاستعبادي ونهبي وقتلي، وضع فوق الرماح ليكون الفشل ولتكون النكسة من نصيب ذلك الرجل.

يا للهول... هذا كل ما كان... اذ انني وجدت بعد انقضاء خمسة آلاف سنة كئيبة قاتلة، رجلاً يحكي لنا عن «الله» ولكنه لم يعرض حديثه للأمراء والنبلاء، بل «لنا»... لم يكن كبوذا ليذهب الى «نيروانا» ولا كالرهبان ليخدع الناس ولا كالعرفاء، الذين يبغون ـ الوصول الى «الله».

أجل لقد وجدته رجل جهاد وعدالة... فان اخاه ـ عقيل ـ اصبح الضحية الاولى لهذه العدالة الجافة الصارمة... رجل، كانت زوجته بنتاً لذلك «المبلغ» الكبير... الخ. كانت تشتغل وتحمل ككل العاملات المحرومات، تتحمل الاذى وتتجرع القذى فتذوق الجوع والضنى بلحمها ودمها...

اجل يا اخي... وجدت رجلا كان اولاد، واوثين لتلك الراية الحمراء، التي ظلّت تفور دماً حاراً نحو السماء على امتداد التاريخ، ولهذا تراني بعد مضي خمسة آلاف عام ومن هول تلك المعابد والابنية التي اعرفها «انا» وتعرفها «أنت» فذهبنا ضحاياها... ومن خوف ذلك الاستبداد وتلك الفرعنة التي اعرفها «انا» وتعرفها «انت»... اجل بعد

مضي كل هذه الاعوام تراني اعتصم بهذا «البيت» اللبني الوضيع... المهجور، الصامت.. كأنه بيت اموات... ظل «هو» وحده... ذهبوا كل وغاب ذلك «المبلغ» الكبير... ارتحلت زوجته.. لا يدري علام بلوى.. كان يبكي لأجل ما ابتلينا به «انا» و«انت»... وهو يجري بين نخيل بني النجار... ويناجي ببكائه «الله».

أخي: كان «هو» والذين معه كلهم «منا».. من المحرومين.. ترا، ولأول مرة يستخدم الفصاحة والبلاغة في بيانه وخطاباته الغرا، لاجل انقاذنا وتوعيتنا، لا لأجل تبرير وتوجيه محروميتنا وتدعيم الانظمة الحاكمة.. كان حديثه أفضل من «ديموستنس» ولكن لا، لإحقاق حقوقه الشخصية فقط... كان كلامه أبلغ من «بوسويه»[1] الخطيب ولكن لا للتملّق في بلاط لوي بل لأجل المظلومين ليصرخوا بوجه الظلمة... سيفه لم يشهر للذود عن نفسه وعائلته وقومه... ولا لحماية المقتدرين المغتصبين... بل كان اسخى وأصدق من «سبارتاكوس» لأجل خلاصنا من الذل والعبودية... كان يفكر أحسن من «سقراط» ولكن لا لأجل اثبات الفضائل والاخلاقيات التي عليها طابع النبلاء المتعجرفين، بل

(١) جاك بينيني بوسويه، لاهوتي وواعظ وكاتب فرنسي، ولد في ديجون عام ١٦٢٧، ومات في باريس عام ١٧٠٤، اشتهر في باريس بمواعظه وبتأبينه التي ألقاها بين ١٦٦٧ و ١٦٨٧، تحول إلى فيلسوف ومؤرخ حرصاً منه على فائدة تلامبذه فكتب «المقال في التاريخ الكلي» الذي حاول فيه التركيب بين النظام الإلهي والفاعلية الانسانية. انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص ٢٠٢.

لإحقاق القيم الانسانية الأصيلة لأنه لم يكن من ورثة الفراعنة والكهنة، فهو لا يملك محراباً ولا مسجداً، انه شهيد المحراب.. «هو» اسوة حسنة للعدالة والتفكر البنّا، ولكن لا، لزوايا المكتبات والمدارس، وهو لا يعدُّ من العلما، الارستقراطيين الذين يصلحون لأن يوضعوا في المعاوض للبيع، في حين انهم من شدة التفكر العميق!! لا يفهمون مصائر الناس ولا يعانون شيئاً من عذابهم ولوعاتهم وجوعهم القاتل.

انه في ذات الوقت، حينما تجول روحه العظيمة في أرجاء السماوات، يسمع، انين الاطفال اليتامى فتنتابه رعشة محرقة تستولي على كيانه كله.

انه يصرخ لأجل جور جرى على امرأة يهودية في حين انه نسي شدة ألم ضربة الخنجر القاتلة في المسجد، قائلاً: «فزت وربّ الكعبة»!

أجل يا أخي، انه ملك البلاغة والكلام العذب الساحر ولكن حديثه هذا لا يتشابه ابداً بالشاهنامة. تلك الملحمة الحماسية التي تحوي على ستين الف بيت، حيث انك خلال هذه الملحمة كلها لا تجد حديثاً «عنا» سوى مرة واحدة فقط.. أجل مرة واحدة: تحدث الشاعر «فردوسي» عن واحد «منا» يدعي «كاوه»، الحداد الحر، المناضل من أجل الحرية والنهضة والخلاّقي والنجاة لرفاقه الكادحين، ولكن بطلنا الجسور هذا ضاع وظلّ مجهولاً قبل ان تثمر نهضته ويفتح طريقه الى الشاهنامة.. أجل لن نعرض شخصيته بشكل واضح بين، علام؟ لأن

شخصية «فريدون» النبيلة ونسبه العرقي طغيا على بطولة هذا الرجل الكادح.. ولذلك فإننا لا نرى اسمه في (الشاهنامة) إلاّ خلال أبيات معدودة فقط.

والآن يا أخي!! نعيش في عصر ومجتمع يحتاج «اليه».. فهو لا يقاوَن بباقي الحكما، ولا يشابه العباقرة والعلما،، إذ أنهم كانوا عباقرة فهم ليسوا رجال أعمال... وان كانوا رجال أعمال بل ومن الكادحين فهم ليسوا مفكرين وعباقرة، وان كانوا في ذات الوقت رجال أعمال كادحين وعباقرة مفكرين ايضاً فهم ليسوا رجال ميادين الحروب والجهاد وان اجتمعت ـ بفرض المحال ـ الثلاثة عندهم في آن واحد، فهم ليسوا اتقيا، وازكيا، وان توفرت لديهم كل هذه الخصال فهم لن يعرفوا الله حق معرفته بل نراهم يتخبطون في دوامة مظلمة عشوا،.

انه وجل كل هذه الأبعاد الإنسانية كواحد من الكادحين مثلي ومثلك تماماً، بكدّ وتعب، وبنفس الأنامل التي خطت تلك السطور الملكوتية في «نهج البلاغة» يدفع بمحرانه في الارض ليحفر بئراً أو ليحدث قناة ويفتح الما، على الاراضي البائرة اليابسة. كأحد العمال والزراع تماماً ولكن لا لهذا وذاك، بل لنفسه، يصرخ في قعر القناة: جروني الى الاعلى، وحينما يجرونه الى فوق وهو مغطى بالوحل، ينهمر الما، في تلك الارض العطشا، المحرقة نحو المدينة، **فتفرح** بنو هاشم، ولكنه قبل أن يتنفس الصعدا، ويستريح قال: **«طوبى للذين**

سيرثوني. فإنهم لم يحصلوا على قطرة من هذا الماء»...

أخي والآن.. وفي هذه الحالة حاجتي اليه ملحة ولا بدّ لزعيم مثله يعينني في هذا الطريق الشاق المليء بالمصائب والويلات، لأن الحضارات والثقافات والاديان والمذاهب تغيرت وأدبرت وانقلبت على عقبها واوغموا الانسان ليكون حيواناً مستهلكاً اقتصادياً أو حيواناً لا يعرف سوى ذاته والاستقالة فقط. صارفاً عمره في ازقة المعابد، وقد يكون انساناً فكوراً عاقلاً ذا بصيرة ولكن دونما عاطفة أو احساس. كأنهم لا يحملون بين جنبيهم قلب انسان، اناس قشريون، غلظاء، لا يدركون معنى للمحبة، وقد يكون رجل حب واحساس وعاطفة ولكن دونما تدبر وتعقل، عقلهم خالٍ من التفكر السليم. دونما علم ـ جُهّال، دونما منطق واستدلال... غير انه رجل كل هذه الخصال... ربّ الكدح والتعب والعمل... ربّ البلاغة والفصاحة... ربّ الجهاد والحرب... ربّ الاخلاص والوفاء... ربّ العذاب والحرمان... ربّ السكون والسكوت... ربّ الصرخة المهيبة... ربّ العدل والقسط.

والآن يا أخي... نعيش في مجتمع تسيطر الأعداء على نصف أو بالأحرى على كل العالم، فيدفعون جيلنا هذا الى استعباد جديد لم يألفوه من قبل.

والآن إذا نظرت الى ظواهر الأمور، وبشكل قشري وسريع خاطف نرانا اناساً احراراً، لسنا عبيداً لأحد أو فئة أو تكتل اجتماعي

أو سياسي أو غير ذلك، لأن العبودية وقضية الرقيق أمست من القضايا الرجعية البالية!!... ولكننا ـ يا أخي ـ ابتلينا بعبودية جديدة اقتلع وانعس من عبوديتك «انت»... نهبوا تفكيرنا... قيدوا قلوبنا وسلبوا ارادتنا... انهم يجعلوننا ننمو في فضاء شاحن باستعباد متوج بشعارات الحرية وبقدرات العلم. علم الاجتماع، الثقافة، الفن، حرية الجنس، حرية تقديس الشخصيات، حرية الاستهلاك وحرية الاستيلاء والتعصب... اجل بقدرات هذه العلوم استأصلوا الغاية والايمان والاحساس بالمسؤولية والاعتقاد بمذهب «معين» من ادمغتنا ونفوسنا.

والآن يا اخي... فنحن امام هذه الانظمة الحاكمة نشبه الى حد بعيد، الاوعية الملونة الجميلة الجوفاء، نستوعب كلما يصب في ادمغتنا ونفوسنا.

والآن... باسم الفرق والمذاهب... باسم السلالة والنسب... باسم الأوطان والحدود... وحتى باسمه «هو» وكذلك باسم متاعبه ومخاصميه... باسم هذه التعابير المصطنعة قطعونا ومزّقونا قطعاً صغيرة ليسهل عليهم بلعنا.. يا للتفرقة.. يا للشقاق و النفاق... يا للتشتت والتبعثر...!!

جعلوا مناصريه وشيعته ينقضّون على أنفسهم ويمزقون رفاقهم واخوانهم... أعداء ألدّاء مع بعض.. لماذا؟ لأنه لا يسيل بديه حين

الصلاة... يمثلي دم الانتقام في وجوههم... لأنّ ذاك يسجد على تربة وهذا لا يسجد عليها.

انبتوا في نفوسنا الاشتباك والنزاع والمشاجرة بشكل فظيع.. نفوا وواد الفكر الاحرار وأبعدوهم الى افطاو بعيدة عنا في حين انهم بدأوا يمثلون دوو الراعي المحافظ والذائد عن رعيته وقطيعه..!!

أخي، يا أخي... لقد كنت تعرف سيدك ومولاك وكذلك ألم الخيزوان والسوط جيداً دونما تخبط أو ابهام... كان يسيراً عليك ان تشعر به وتحسه... اذ كنت عاوفاً بعبوديتك... وتعرف أيضاً سبب هذه العبودية... وتدري متى اصبحت عبداً ومن هم الذين استعبدوك؟ ولكنا الآن ابتلينا بنفس مأساتك هذه ولكن بدون أن نعرف الذين جعلونا عبيداً لهم في قرننا الحاضر هذا، ولا ندري من قبل أي فئة أو جهة نسلب وننهب وكيف وقعنا في شرك الذل والاستسلام والخضوع وانحراف الافكار والعقائد والعبودية المشؤومة السوداء الرهيبة.

أخي، يا أخي: الآن، يجرّونا كالبهائم الى حظيرة الرق والاستعباد ليستنقذوا دماءنا ويستغلونا أكثر بكثير من عصرك وجيلك... ليس امامنا طريق سوى تشغيل هذه القوى ورؤوس الأموال والمصانع والثروات الفنية الهائلة والانتاج، يجب أن ندير عجلات هذه القوى بدمنا ولحمنا واضطهادنا واستضعافنا ولا يصيبنا سوى ما يسدّ رمقنا او لا يسد...

الحرمان والتمييز العنصري والظلم والجور في عصرنا اشد واكثر من عصرك ولكن بنقاب جديد وطريقة اجدد.

أخي، يا أخي... هذا عليٌّ تراه يقدم حياته كلّها لأجل هذه الكلمات الثلاث...

خمسة وعشرون عاماً كلها تضحية وفداء ونضال من اجل غرس الايمان والعقيدة في قلوب اناس غلاظ متوحشين متقرفين، خمسة وعشرون عاماً آخر قضاها في صمت مرير وصبر قاتل كان في عينه شجى وفي حلقه قذى من اجل وحدة المسلمين انجاه الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الايرانية، كذلك خمسة وعشرون عاماً آخر من بقية حياته كانت مفعمة بالجد والجهود ومملوءة بالعذاب واللوعة من اجل استقرار العدالة الاجتماعية ومحو كل آثار الحقد والضغائن بسيفه الجبار ذي الفقار لنكون احراراً نملك مصائرنا ولا نعبد إلّا الهاً واحداً مفنداً عزيزاً، ولكن يا للاسف لم يقدر... لن يقدر... مع هذا فقد علمنا بمنهجه ومدرسته وطريقه وكذلك الزعامة والسيادة دوماً... منهج العدالة وزعامة الناس وعلى هذا فهو تاوك وراءه ثلاثة شعارات وعلى اثرها فقد قدم نفسه وعائلته وكل ما يملكه على منصة الاستشهاد والفداء وذلك لأجل هذه الكلمات الثلاث الخالدة في مجرى التأريخ:

المبدأ... الوحدة... العدالة الاجتماعية...

توينبي . الحضارة ـ الدين

حوار مع توينبي[1]

قال لي: دعني اطرح هذه المسألة الشخصية قبل ان نبدأ حوارنا. أنت تعرف انّي رجل مؤمن وانظر الى الدين من منظار كونه حقيقة وضرورة ماسّة إلّا انّي أعاني الشكّ والتردّد في أفكاري وميولي السياسيّة. فكثيراً ما اشعر بالحيرة في كيفية الجمع بين نزعتي الدينية التي لا تتلاءم بطبيعة الحال إلّا مع نظام اجتماعي -سياسي مثاليّ، وبين افكاري السياسية المتأثرة والمعجبة جداً بالنظام العلماني. فانّي يصفني مسيحياً مؤمناً ادعو الى نظام حكم ديني ويصفني نصيراً للديمقراطية اؤيّد نظام الحكم العلماني وهذه الازدواجية جعلتني أعاني دائماً من صراع واحترام عنيف في أفكاري.

قلت: انه صراع منطقي وضروري وليس بوسعك إلّا ان تختار

---

(1) أرنولد توينبي (Arnold Toynbee)، مؤرخ وفيلسوف انكليزي (١٨٨٩ - ١٩٧٥). أكد في مؤلّفه الرئيسي «دراسة في التاريخ» إرادته في بناء فلسفة التاريخ انطلاقاً من دراسة إحدى وعشرين حضارة. من مؤلفاته الأخرى: «الحرب والحضارة»، «الحضارة في محنة». انظر: معجم الفلاسفة، جورج طرابيشي، ص ٢٤٦.

واحداً وندع الآخر.

قال: اظنّ انك تعاني نفس هذا الصراع بشكل أكثر حدة: لأنّك مزجت الاسلام مع أفكارك السياسية، اللهمّ إلّا أن تقول: انك لا تؤمن على الاطلاق بنظام الحكم العلماني وهذا ما يستبعد تصوّره لأن منهجيتك في التفكير وحتى وجودك في هذا الحفل يدلّان على أنّك تؤمن ايماناً راسخاً بالحرية والديمقراطية. اذن انت تطالب بنظام حكم اسلامي من جهة ونظام حكم علماني من جهة أخرى، فكيف يكون ذلك؟!

في هذه الأثناء، تحدّث شخص ثالث كان جالساً معنا وقال بمزاح: «انّ حلّ هذا التناقض هو أمر سهل بالنسبة إليه (وأشار اليّ). اظن أنه سيثبت لك الآن انّ نظام الخلافة الاسلامي هو نوع من الحكم العلماني؟!

قلت: كلا، على الاطلاق. فالخلافة ليست نظاماً علمانياً بل حتى لا يمكن اعتبارها حكماً اسلامياً. انّها حكومة عنصرية جاهلية مصبوغة بصبغة اسلامية. فلم تقم الخلافة على اساس اسلامي وانما اتخذت الاسلام وسيلة للدفاع عن نفسها وجعلت منه حارساً امنياً يدافع عنها.

قال توينبي: لا، هذا ليس صحيحاً، انك تريد ان تنسب افكارك وعقائدك الخاصّة الى الاسلام، بتعبير آخر انك لا تطرح الاسلام كما هو بل تطرح اسلاماً خيالياً بحسب المثقفين في وقتنا الراهن. انا اعتقد انّ

عليك أن تتقيّد بحقيقة الاسلام. فالاسلام هو الشيء الذي كان موجوداً لا الشيء الذي تتمنى ان يكون موجوداً. ثمّة فرق بين الاسلام الذي تتمناه انت كمثقف متأثر بالثقافة الاشتراكية والعقائد الديمقراطية وبين الاسلام الذي جاء به النبي محمد (ص) في القرن السابع الميلادي وآمن به العرب وعملوا بأحكامه منذ ذلك الحين.

قلت: ان سمحت لي بإكمال حديثي لعرفت انّ انتقادك الوارد هذا ليس وارداً عليّ.

قال: ماذا تعني؟ فان كان الانتقاد وارداً كيف لا يكون وارداً عليك؟!

قلت: انتقادك وارد لانّ هذا الكلام هو كلام صحيح قائلنا يجب ان لا ندسّ عواطفنا وأمزجتنا الخاصّة في الحقائق الا انّ هذا الانتقاد ليس وارداً عليّ لانّك لو استمعت الى كلامي لرأيت انني لم افعل ذلك.

قال: عذراً، انا استمع اليك.

قلت: انني عندما اطرح فكرة الحكومة الاسلامية اقصد بذلك حكومة النبي محمد (ص) وبعض خلفائه الاوائل الذي كانوا يعملون بسنّته، في حين انت تنظر الى خلفاء الامبراطورية العثمانية أو الى حكومة الخلفاء في اسبانيا وبغداد وسوريا أي الى الحكومات التي ينفر منها المسلمون المثقفون أكثر من غيرهم.

في البداية، علينا أن نعرف ما هي الحكومة الدينية؟ الحكومة

الدينية هي الحكومة التي يحلّ فيها رجال الدين محلّ رجال السياسة، بتعبير آخر الحكومة الدينية هي حكومة رجال الدين على الشعب.

الاستبداد هو من المعالم الطبيعية التي تتسم بها هكذا حكومة. لأنّ رجل الدين سيشغل منصب خلافة الله وتنفيذ اوامره في الارض، وفي هذه الحالة سوف لا يكون للناس حقّ لإبداء الرأي والانتقاد والاعتراض. فالزعيم الديني يعطي لنفسه حق الزّعامة والقيادة مرتكزاً على قيمته واعتباره الديني لا على قيمة آراء الناس وانتخابهم. اذن هو حاكم غير مسؤول وهذا النوع من الاستبداد هو اسوأ انواع الاستبداد والدكتاتورية الفردية. لأنّ الحاكم الديني يظنّ انه خليفة الله وظلّه الممدود في الارض فهو يسيطر على رقاب الناس واموالهم ونواميسهم ولا يتردّد في اي نوع من الظلم والاسراف والاعتداء بل يعتقد انّ هذه الاعمال مقرونة برضا الله تعالى عزّ وجل، والأسوأ من ذلك انه يعتقد انّ معارضي حكومته واتباع الاديان الاخرى لا يستحقون حتى حق الحياة لأنّهم هم الضالّون الذين غضب الله عليهم وهم اعداء دين الله والحق وانّ الاعتداء على هؤلاء وسلب حقوقهم هو امر عادل بل هو العدل الالهي بعينه!

لقد حكم القساوسة في القرون الوسطى بلاد اوربا باسم الحكومة الدينية وقد رسم فكتور هيجو تصويراً دقيقاً يجسّد فيه مساوىء هذا النوع من الحكم.

امّا الاسلام فلا يمكن اثارة هذا الأمر فيه لأنّ المجتمع الاسلامي لا يوجد فيه رجل دين بالمعنى الذي نراه في الأديان الأُخرى. فلا توجد فئة خاصّة باسم (روحانية) «الكلمة التي تعادل كلمة Clerge» باللغة الانجليزية. الدين في الاسلام ليس مهنة والارتباط بين الفرد وربّه في هذا الدين هو ارتباط مباشر وانّ تحصيل علوم الدين في الاسلام لا يختص بفئة خاصّة بل فرض هذا الدين طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ولم يسمح لأحد بالتّقليد في أُصول دينه كما فرض التبليغ الديني والدّعوة الى المبادىء الأخلاقية على جميع الشعوب المسلمة ولم يخصّ جماعة بهذه الدعوة الكريمة - فلا يوجد في الاسلام رجل دين رسمي او مبلّغ رسمي او مفسّر رسمي او مندوب ديني رسمي، فالجميع جنود مبلّغون يربطون الخلق بالخالق، وهم في الوقت ذاته مفكّرون مستقلون مسؤولون عن أعمالهم وعقائدهم وهذا هو البعد الفردي الليبرالي في الاسلام الذي تدّعي امريكا دجلاً انه ينتمي اليها وهو اساس الديمقراطية الانسانية التي تضمن حريّة الفرد وتحافظ على حقوقه حيال المجتمع وعلى قدرته ومركزيّته[1].

(١) صحيح انّ هنالك جماعة خاصّة باسم «علماء الدين» تبلورت بسبب تعقيد المسائل واتساع رقعة المجتمع الاسلامي الا انّ هذه الجماعة هي جماعة من رجال الدين العاديين وليست جماعة رسمية- فهي جماعة قابلة للانتقاد والاعتراض وليست جماعة مقدّسة غير مسؤولة، ومعصومة مصانة من الخطأ.

وداعاً...

يا مدينة الشهادة

قبران في طوس: خير الناس كلهم   وقبر شرهم، هذا من العبر

ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ وما   على الزكي بقرب الرجس من ضرر

هيهات كلّ امرئٍ رهن بما كسبت   له يداه فخذ ما شئت أو فذر

لا أضحك الله سنّ الدهر إنْ ضحكتْ   وآل أحمد مظلومون قد قُهروا

مشرّدون نُفوا عن عقر دارهم   كأنّهم قد جنوا ما ليس يُغتفر

* * *

ما أبلغ مزار سلطان أرض طوس وما أفصح قبّته الذهبيّة التي تعلو سطح الحرم، الحرم الذي يرقد فيه الخليفة والامام، الجلاد والشهيد.

ماذا أقول ؟

يرقد هارون في وسطه والامام في احدى زواياه لأنّهم دفنوا الامام الى جانب الخليفة تكريماً له.

كان مدفن الامام في البداية داراً لحميد بن قحطبة وكان صحن حرم الامام بستاناً تابعاً لتلك الدار وهو البستان الذي سمّم الامام بعنبه.

يا للعجب كم يستطيع المعمار أن يكون معلّماً ومفهّماً!

العالم يتحدث اليوم عن «فلسفة العمران» ولكن في اي مكان من الارض يستطيع المعمار ان يكون فيلسوفاً عميقاً كهذا!!

يتحدّث العالم اليوم عن «فلسفة التاريخ» ولكنّ فـي ايّ زمـن استطاعت «فلسفة التاريخ» ان تتجسّم في شكل بناء كهذا البناء!

أربعة عشر قرناً مضت وهم يـتحدثون عـن «اسـلام التّـاريخ» و«تأريخ الاسلام» ويدرسون الحقيقة والايـمان والتـحريف والنـفاق والحق والغصب والخلافة والامامة والظاهر والباطن والكفر والايمان والاسلام الحاكم والاسلام المحكوم و...

ولكن أيّ محقق ومبلّغ وكاتب ومؤرخ ومتكلم ومـفسر وفـقيه ومحدث.. استطاع ان يجسّد الحقيقة كما جسّدها هذا البناء؟

من منهم استطاع خلال هذه القرون الاربعة عشر ان يجمع كـل هذه الرموز والاسرار والمفاهيم والعواطف والاجـتهادات والبـحوث والجدل الديني والصراع السياسي والمذاهب الفكرية والتضاد الطـبقي والعلاقات الاجتماعية والصراعات التاريخية و...كلّ شـيء فـي بـناء واحد وقبّة واحدة؟ بكلمات منقوشة على الحجر وعـبارات مـرسومة على الفضة والذهب والرخام وعبارات مكتوبة على «الابواب والجدر» ونقوش في «البيوت التابعة» وفي قوائم الانظمة والمنظومات...

تأمّلوا في اسم «البيوت التابعة» للحرم:

دار الحفاظ، دار السّيادة، دار الضيافة، دار العزّة، دار السعادة و...

وفي النظام الاداري:

الخفر الأول، الخفر الثاني، الخفر الثالث، الخـفر الرابـع، الخـفر الخامس، الخادم الرسمي، الخـادم الفـخري، البـوّاب، الادارة، دائـرة المراسيم، دائـرة الاعـلام، دائـرة البسـاتين، دائـرة الامـلاك، دائـرة الاراضي والموقوفات والاجارات والنذور و....

وامّا قائمة أسماء اولئك الذين خلّدوا اسمائهم في الكتب أو في النقوش الحجرية بواسطة ايجاد بناء أو تجديد بناء أو تذهيب ايوان أو منارة تكريماً لهذا المـزار المـقدس: السـلطان مـحمود الغـزنوي[1]، السلطان سنجر السلجوقي، شاهرخ الملك المغولي، جوهر شاد الملكة المغولية، بايسنقر الامير المغولي، السلطان ابو سعيد، السلطان باير شاه، الشاه عباس الصفوي، نادر شاه و...

وهناك قـائمة طـويلة بـأسماء الأعـيان والاشـراف والأمراء الايرانيين والأتراك والتتر والمغول مذكورة فـي الكـتب وفـي عـقود الوقف.

وكل هذا يدلّ على انّ «صانعي حوادث التاريخ» قد لجأوا الى

(١) ظهر الغزنويّون في أواخر الدولة العباسية وتمركزوا في خراسان واتخذوا من مدينة (غزّين) عاصمة لهم، ومن أشهر سلاطينهم السلطان محمود الغزنوي.

هذا المكان المقدس في مساوي، حوادث الدهر. فقد كان ملوك الزمان وجبابرة الارض يتساوعون لتقبيل هذا التراب والخضوع امام هذه العظمة وكان هذا الضريح مباداً لرجال ثالوث السلطة في التاريخ. الامراء والملوك الاقطاعيون، ورجال الدين الذين طالما استعبدوا الناس سياسياً واقتصادياً وعقائدياً، يتوجهون وكأنهم رعايا الى مزار السلطان علي بن موسى الرضا معبّرين بذلك عن انتساب سلطانهم وقدرتهم ونفوذهم السياسي والمادي والمعنوي الى هذا المزار السماوي المقدّس الذي منحهم هذه المكانة واعطاهم هذا المنصب في الأرض، فإنّ شموس حياة الناس (هؤلاء) ليسوا إلّا أقماراً صغيرة تدور حول «شمس الشموس»، سلطان أرض طوس.

ولذا نرى السلطان عباس الكبير يخلع نعليه ويعلّقهما على رقبته ويمشي على قدميه الحافيتين من أصفهان ـ عاصمة الدنيا ـ الى مشهد «الرضا» ايماناً وارادة واخلاصاً رغم جلاله وجبروته وقدرته وسلطانه ورغم وجود صالة تختصّ بالموسيقى والشراب في قصره «عالي قابو» ورغم انه كان يقتل الذكور في عائلته لينفي عنه خطر ظهور من ينافسه على السلطان.

وفي حرم الامام نرى هذا السلطان يقصّ ووس الشموع كالخدم فينشد العلامة الشيخ البهائي الذي كان أكثر رجال الدين قدسية في زمانه هذا البيت البديع في حضوره:

«قيهى نو به احتياط زن اى خادم ترسم ببُرى شهپر جبريل امين»

ومعناه:

«ايها الخادم خذ حذرك في استخدام المقص، فانّي اخشى ان تقص به جناح جبرئيل الامين»

وترى الملك الشهيد ناصر الدين ينشد هذا البيت وهو يقبّل ثرى قدم الامام:

«در كفشكن حريم پور موسى موسای كليم يا عصا مى‌بينم»

«في منزع احذية حرم ابن موسى ارى موسى الكليم متّكئاً على العصا».

لقد كان هذا المزار ملجأً للشاردين وملاذاً للهاوبين ومأوىً آمناً لمن كان يفرّ بنفسه من سيوف الطغاة والجلادين.

وهكذا أصبحت «مشهد» مدينة كبيرة. فبعد هجوم جنكيزخان وبعد أن أراق ابنه «تولي» دماء اهالي مدينة طوس، لجأ من استطاع الهروب بنفسه الى ضريح الامام وسرعان ما تحوّل هذا المزار الصغير الواقع في ضاحية مدينة طوس الى مدينة كبيرة وامست طوس مدينة خربة مهجورة تقع في ضاحية هذه المدينة.

بعدها حاول خلفاء جنكيز ارجاع الناس الى مدينتهم ولكن لم يرجع احد، فقد آثروا ان يبقوا إلى جوار امامهم غرباء كإمامهم الغريب

ويتركوا دياوهم الى الأبد.

وهكذا اشـمت هذه المدينة!

وما زالت هذه المدينة على هذه «السنّة» التي كانت عـليها مـن قبل.

إن هنا لك شيئاً خفياً في هذه المدينة يخاطب القلوب ويـحكي عن عظمة هذه «الروح» فهي تضمّ الى صدوها الغزلانَ الجريحة الهاربة من مطاردة الصيادين في صحراء اللهيب و الهول هذه. الصحراء التي لا يعيش فيها سوى الذئاب والثعالب والفئران ولا تسكن فيها إلاّ النعاج لانّها ذلولة سمحة القياد.

اما الغزلان فهي طليقة تجوب كل مكان ولا ملجأ لها في هـذه الصحراء القاحلة لأنّها لا تمتلك أنياب الذئاب ولا رقاباً تطيق القيود.

فهي هاربة دائماً من فزع هذه الصحراء الجرداء.

الصحراء هي التاريخ بعينه قد تجسّد في قالب جغرافـي، فـهي عظمة مرموزة صامتة قانطة مسلمة قاحلة، لا ماء فيها ولا زرع ولا جبل شاهق مغرور ولا نهر جاري مسرور ولا اغنية نبع عاشق ولا بستان ولا سحابة ولا زهرة ولا منظر ولا مرتع ولا طريق ولا سفر ولا منزل ولا مقصد ولا حركة نهر ولا قاع بحر ولا صرخة رعد ولا لمعة برق.

انها مكان هادىء محروق حزين قانط. فهي مسكـنٌ للغيلان والجن والاوواح الخبيثة والذئاب وملجأ للوسواس الخناس والفاسق

الواقب والنفاث الساحر والحاسد الخائن! ـ انّـها مـوطن الخـيال والاسطورة. فهي سرابـه لاماء فيها ولا شجر، يسـودها السكـون، لا بسبب الهدوء والسكينة بل من شدّة الخوف.

لهيب هوائها القاسي يغلي المخ في الدماغ وحراوة رمالها تفزع النبات عن الإنبات. والناس فيها وجوه مشوية ونواصي مجعّدة وعظام متهرئة يكسوها الجلد.

التمعّن في الصحراء امر صعب ولهذا يضع الناس الايدي عـلى العيون لكي لا ترىَ الصحراء أنّهم يرون ولا نعرف انهم يعرفون.

وبين الحين والآخر تهبّ في الصحراء عاصفة فتقلب كل شيء وتحجب السماء عن الارض الا انها تهدأ بعد قليل ليبدو وجه الصحراء من جديد وكأنّه لم يطرأ عليه اي تغير. فالصحراء تعصف وتهدأ ولكن دونما اي تغيـر فهي كالبحر، غير أنّها ليست بـحراً مـن المـاء والـعطر واللؤلؤ والسمك والمرجان بل من التراب والرمال والغبار والافـاعي والوزغ والبرابيع...!

أغلب الكائنات التي تعيش فيها هي من الزواحف، غير أنّك تجد بين الحين والآخر طيوراً خائفة لاموطن لها ولا ملاذ تذكّرك بقصة بيغاء طاغور ولكن ليس في الهند بل في ارمينيا.

اما نبات الصحراء فهو «الخنشار والصبّار»، هذه الاشجار الـتي تتسّم بالشجاعة والصبر تتحدّى الصحراء فتخرج شطأها مـن صـدر

ومالها الملتهبة مستغنية عن الماء والمدح والثناء ثمّ تستوي على سوقها وتظهر بمظهر الآلهة في هذه الصّحراء: شجاعة وغرور ووحدة وغربة، كأنها سفيرة العالم الآخر في قلب الصّحراء!

هذه الأشجار الشجاعة التي تنبت في قلب جهنم ليس لها ورق ولا ثمر لأنّ شوق الأزهار والأثمار قد وئد في سيقانها وأغصانها. واما مصير هذه الاشجار: فأنها تجتثّ من جذورها بجريمة التجاسر على الصحراء فتوضع في التنور وتحرق ليخبز بها الرغيف. هذا هو مصيرها المحتوم.

واليوم...

جاء غزال خائف الى مزار حامي الغزلان.

ليلجأ الى حمى أمنه وايمانه.

لانّه سمع انّ عيناً نبعت من الغيب في هذا المكان .

وانّ بستاناً غطى التراب بغطائه الزمرّديّ .

إلاّ انّ تلك العين لم ينبع منها إلاّ «المكر» .

والبستان لم يزهر فيه الا الورد الاسود والعنب المسموم والرّمان القاتل.

فأصبحت قصّة هذا الغزال[1] تذكّر بمصير قومه.

الذين خلّصوا رقابهم قبل مئات السنين .

(١) المقصود بالغزال هنا هو الشاعر الفردوسي صاحب الشاهنامه.

من «قيود عدل انوشيروان[1]».

ولجأوا الى المدينة بحثاً عن «عدل بلا قيود»

إلاّ انّ المطاف آل بهم الى بغداد .

ليجدوا انفسهم قيّدوا بـ«عدل القيود».

وحلوا ليبحثوا عن النبيّ .

غير انّهم وجدوا خليفته الغاصب .

واليوم..

لجأ الى الامام رجل وحيد .

من أحفاد هؤلاء القوم الخائبين .

إلاّ انّه وجد في حرمه الطّاهر نائبه الغاصب .

ماذا أقول ؟

وجد جلاداً يرقد في حرمه .

يا لها من دائرة مخيفة !

انّ اقرب الناس إليه .

هو أشدّ الناس عداءاً له .

وان الأقرب مداراً الى محور الصدق وشمس الغيب هو الأكثر كذباً وأشدّ مكراً.

* * *

(١) وهو الملك الفارسي العادل. (المترجم).

وهذا المهاجر الوحيد، الغزال الطّليق

هو من أحفاد اولئك المهاجرين الغائبين، تلك الغزلان الجريحة الخائفة.

التي رحلت الى مهبط الوحي

ملبيةً نداء النبوّة،

هرباً من الثالوث المشؤوم: «كسرى، دهقان، موبد»[1].

بحثاً عن الثالوث الالهي المقدس: «الحرّية، المساواة، الوعي».

إلّا أنّهم أصبحوا ضحيةً لثالوثٍ آخر اكثر شؤماً: ثالوث «الخليفة ـ الشيخ ـ الفقيه». لقد ترك هذا المهاجر الوحيد، فطبع تعاج الصحراء الجائعة هرباً من ثالوث «الذئب ـ الثعلب ـ الفار».

ملبّياً نداء الوصي.

بجسم يكاد ان يكون نيلجيّ اللّون من شدّة ضرب السياط.

وشفاه تلتهب من شدة العطش.

واقدام مجدّرة من طول الطريق.

وقلب مفعم بالشوق والعشق.

لجأ الى حرم الامام:

ولكن...

وامصيبتاه!

(١) دهقان: الملّاك والاقطاعي الكبير، موبد: رجل الدين المجوسي.

انّه حرم «هارون»!

والامام يرقد الى جانبه!

الى جانب هارون!

أيعني هذا انّ الامامة هي في هامش الخلافة؟

أيعني هذا انّ الايمان هو في خدمة الجور؟

أيعني هذا انّ لباس التقوى هو غطاء يغطّي هياكل الزور؟

أيعني هذا نسترّ ثالوث «السّيف ـ الذّهب ـ السبحة» بستار الدين؟

أيعني هذا اننا نطوف حول هارون باسم الامام؟

أيعني..

هناك الخلافة والرسول وهنا النيّابة والامام؟

أيعني اختفاء رجس هارون في ضريح العصمة الطاهر؟

أيعني تطهير السلطة من جديد؟

وتقديس الذهب.

وتبرير الزور والتزوير؟

أيعني دعوة الخلق الى زيارة الخليفة باسم الدين؟

لست أدري...

غير انّي أعلم انّ هذه الشجيرة الصغيرة.

سليلة شجيرات الخنشار والسّمر تلك.

ما ان أورقت وأزهرت حتى حلّ الشتاء.

فاجتثّها من الجذور.

نجّارو الخشب وصنّاع الفحم وموقدو النّيران وخبّازو الرغيف لقد امسكوا بتلك الغزالة الهاربة.

في حمى حاميها.

وسلّموها الى الصياد.

ففي هذا العصر هجمت الخلافة مرّة أُخرى.

وأغار سعد بن أبي وقاص آخر في قادسية أُخرى.

وزحف وحوش العرب من جهة الغرب هذه المرّة.

فنهبوا «مدائن» نا.

ودفنوا لغتنا وايماننا وثقافتنا وتاريخنا.

وجاؤوا بالعبودية والجهل بسنا والمدينة والعلم.

وهدموا الأسوار والبروج واسقطوا الجدر والسقوف.

واطفأوا نيران المعابد.

و...

زنـــرك وزايـــران واز تـــازيان ‏ ‏ ‏ نـــژادى پـــديد آمـــد انـــدر مـــيان

نه ترك ونه ايران نـه تازى بـود ‏ ‏ ‏ ســخنها بـه كـردار بـازى بـود

نژيان كسـان از پـى سـود خـويش ‏ ‏ ‏ بـجويند ودين آرنـد بـه پـيش[1]

(١) من الايرانيين والترك والعرب ظهر عرق وجيل جديد

وفي غضون ذلك:

نهض ابن الفلاح القروي الخراساني

برأسمال عمره

وقدوة عشقه

بدون مسند وملاذ

أهمل الحياة ليجمع ويدوّن ويذكّر الناس بكل فخر وعشق وايمان وفنّ وحضارة وبطولة... قد اجتثّها خلفاء العرب وسلاطين الترك وباعة الوطن من آل برمك ونوبخت وطاهر وسامان وصفّار و... والعلماء من قبيل المقفّع وافشين و...

فكدح خمساً وثلاثين سنة بدون توقّع اجرة ليننشد «مذكّرة» الايمان المنسيّ لهذا القوم. غير انّ اولئك الذين لم يطيقوا استماع اسم العظماء ولم يرغبوا في احياء الموتى وابصار العمي تآمروا عليه فشرّدوه من دياره وكفّروه وحرّضوا الرعاع على ايمانه بدعوى انّه وجل وافضي معتزلي. فاستدلّوا بهذا البيت على اعتزاله:

«بـــه بـــينندگان آفـــريننده را ‏ ‏ ‏ نـــبينى مـــرنجان دو بـــيننده راه»[1]

واستدلوا بهذه الأبيات على انه رافضي العقيدة:

ليس ايرانياً ولا تركياً ولا عربياً. بناقي كلامه عمله

اخروا الناس طلباً لمنافعهم وجعلوا الدين ستاراً

هذه الأبيات هي للفردوسي شاعر الحماسة الايرانية

(١) لن ترى الخالق بالعين فلا تؤذي عيونك!

«خردمند گيتى چو دريا نهاد   برانگيخته موج از او تند باد
چو هفتاد كشتى بر او ساخته   همه بادبانها بر افراخته
ميانه يكى خوب كشتى عروس   بر آراسته همچو چشم خروس
پيمبر بدو اندرون با على   همه اهل بيت نبى و وصى
اگر خلد خواهد به ديگر سراى   به نزد نبى و وصى گير جاى
گرت زين بد آيد گناه من است   چنين دان واين راه راه من است
بر اين زادم وهم بر اين بگذرم   يقين دان كه خاك پى حيدرم»

ومعناها:

«عندما خلق خالق الكون البحر، وتلاطمت فيه الامواج عند هبوب الرياح

صنع فيه سبعين سفينة، ورفع عليها الاشرعة

وكانت بين هذه السفن سفينة جميلة، كالعروس ومزينة كعين الديك

اجلس الله فيها النبي وعلي، وجميع اهل بيت النبي والوصي

فإن اردت الخلد في الدار الأخرة، خذ مكاناً بقرب النبي والوصي

فإن اصابك سوء من هذا فانا المسؤول، كن مؤمناً بهذا فانّي مؤمن به

اني ولدت علي هذا وسوف اموت عليه، كن واثقاً من انني تراب

قدم حيدر»

...حزن كثيراً وعندما عرف نيّة السلطان محمود، خرج من مدينة غزنين في سواد الليل و... ظلّ هارباً... لمدة ستة اشهر ... قيل له: انت رجل شيعي وكلّ من يتمسّك بآل النبي سيكون مصيره...

حملوا اجرة عمله الذي استغرق خمس وثلاثين سنة على بعير وأرسلوه الى طوس ... وبينما كان البعير يدخل من بوابة (رودبار) في مدينة طوس كان الناس يخرجون جنازته من بوابة «رزان»

وكان هنالك واعظ في محلة طبران طوس وهو فقيه المدينة الكبير اسمه الشيخ ابو القاسم الگرگاني اصرّ بتعصّب وقال: سوف لن اسمح بدفن هذه الجنازة في مقبرة المسلمين لانّه رجل رافضي. توسّل الناس اليه ولكن دون جدوى فاضطرّوا ان يدفنوه في بستان قريب من هذه البوابة كان من أملاكه...».

يقال انّه خلّف بنتاً في غاية الكرم، أرادوا ان يسلّموا اليها صلة السلطان ولكنّها أبّت عن ذلك وقالت: «انا لست بحاجة اليها» فكتب صاحب البريد الى السلطان فأمرّ بإخراج ذلك الفقيه من مدينة طوس».

فاعتبروا يا اولي الأبصار

لولا البابا وماركس...

كان لكل من البابا وماركس دور رئيسي في تدوين فلسفة التاريخ على النحو الذي نراه اليوم او في بلورة نهضة جديدة تطالب بالعدالة الاجتماعية وترفض النظام الطبقي الاستغلالي كما كان لهما الاثر الكبير في بلورة نزعة اجتماعية وخلق رأي عامّ يدعو الى تسييد النظام الاشتراكي ونبذ النظام الرأسمالي في عصرنا الراهن. ففي اوربا كان البابا الذي يعدّ رمزاً للسلطة الدينية ووارثاً لتاريخ الاديان يعمل على تحويل الدين الى نظام فكري رجعي تابع للطبقات الحاكمة، وكان الدّور الطبيعي الذي يلعبه الدين هو تبرير الوضع الموجود وامتصاص نقمة الشعوب المحرومة وتسكين غضبها بالوعد والوعيد وهكذا كان الوضع بالنسبة للطاقات الانسانية الأُخرى كالفلسفة والمنطق والفن والأدب والعلوم.

وبعد عصر النهضة حيث تحرّر العقل والعلم من قيود الكنائس وتخلّصت شعوب اوربا من سطوة حكم البابا ونالت استقلالها الحقيقي، أخذت هذه الشعوب تتطور بسرعة مذهلة، وسرعان ما حلّت الأُمم القوية محل المقاطعات الصغيرة واحتلت الاكتشافات والاختراعات مكان تقليد القدماء والعيش على فضلات موائدهم. بيد انّ المنطق

العلمي والروح التحررية الجديدة والرؤية العلمية الحديثة اتّخذت وبشكل عفوي موقفاً سلبياً تجاه القوى الدينية الرسمية التي تصدّت بدورها لهذا التيار الجارف. وقد ساهمت البرجوازية التي تتنافى مع روح الخير والجمال المعنوي والقيم الاخلاقية المتعالية في تقوية هذا التيار المناهض للدين، خصوصاً أن معظم ممثلي هذه النهضة الفكرية كانوا من افراد الطبقات الاجتماعية المتوسطة اي الطبقة البرجوازية الحديثة التي كانت تناويء الدين ناوة من ناحية الروح الطبقية وأخرى من ناحية كونها تحاول اكتساح النظام الاقطاعي والقضاء عليه. ذلك أن الدين الرسمي كان يشكّل البنية الفوقية الفكرية والثقافية لهذا النظام البائد.

وفي ظل هذه التحولات ظهرت الماكنة لتحوّل الرأسمالية التجارية الى رأسمالية صناعية وتؤدي إلى التمركز في الرأسمال من جهة والتمركز في اليد العاملة من جهة أُخرى، الأمر الذي أدى بدوره الى اتساع الهوة الطبقية اكثر من ذي قبل لأنّ قدرات انتاج الماكنة التي كانت في خدمة اصحاب رؤوس الاموال ادّت الى ازدياد حجم رؤوس الاموال في ايديهم واستثمار اليد العاملة بشكل بشع للغاية الأمر الذي أدى بدوره الى اتساع الهوة الطبقية وتنامي معدل الاستثمار الطبقي عدة أضعاف وكان هذا هو السبب في بروز الصراع الطبقي الحديث وتعبئة الرأي الحرّ ضد الاستثمار والماكنة والرأسمال من اجل انقاذ الطبقة

العاملة التي كانت تفقد يوماً بعد يوم استقلالها وحريتها بل وطابعها الانساني وتظهر بمظهر الآلة المرتبطة بالماكنة العملاقة.

فلم تكن هذه الطبقة تملك ايّ شيء حتى أنّها لم تكن تتمتّع بالحياة التي كان يتمتّع بها الفلاح القديم بل كانت تحصل لقاء عملها على اجرة لا تتجاوز القوة التي أخذتها منها الماكنة لكي تستطيع ان تستمر في عملها يوماً آخر كالفقير الذي يبيع دمه ازاء بطاقة تموينية تسدّ جوعه وتصنع له من الدّم ما يقدو أن يبيعه في اليوم التالي ليبقى يعيش هذه الدوامة الرتيبة التي تسمّى بـ«الحياة».

وفي هذه الأثناء ظهر ماركس الفيلسوف الهيجلي الملحد الذي عاش بعد مرحلة النهضة في اوربا.

ماركس كان ينتمي الى طبقة برجوازية متوسطة وكان في الوقت ذاته ضحيّة التمييز العنصري والتعسف الديني بسبب انتمائه الى اسرة يهودية. وقد تزامن ظهور ماركس مع الحركات العمالية واسعة النطاق التي اجتاحت دول اوربا وخصوصاً المانيا وفرنسا وانجلترا ممهدة بذلك الظروف اللازمة لظهور المذاهب الاشتراكية والشيوعية والحركات النقابية، وبالذات في فرنسا. عملت هذه المذاهب على تحذير الانسان من مغبة الانصهار في النظام البرجوازي السائد ووقايته من المسخ والانقياد لسلطة الماكنة ومناهضة ظاهرة التفريط بـ«العمل» الذي يعدّ الجوهر الحقيقي للانسان ومقاومة التوجه الاستغلالي الذي

كانت الماكنة تزيد في وحشيته يوماً بعد يوم والقضاء على الرأسمالية الفردية الداعية بشكل جنوني الى الحرص والطّمع والجشع..

وأيضاً القضاء على التضاد الطبقي الذي صنّف المجتمع الانساني الى فئات متخاصمة والعمل على انقاذ الطبقات الاجتماعية المحرومة خصوصاً عمّال المصانع من أغلال الماكنة وهيمنة رؤوس الاموال وايجاد مجتمع خالٍ من التضاد الطبقي والاستغلال والجشع واعطاء الأصالة «للعمل» لا لـ«رؤوس الأموال».

لقد دوّن ماركس في ظل هذه الظروف التاريخيّة والاجتماعية الحساسة الاسس الأيديولوجية لنهضة انسانية ثورية مناوئة للنظام الطبقي الاستعماري معلناً انّ انتصار هذه النهضة هو أمر حتمي وجبري زعماً منه بأن ذلك هو نتيجة حتمية للقوانين الاجتماعية والعوامل المادية الخارجة عن ارادة الناس ومشيئتهم. ومن ثم عمد الى قراءة التاريخ لكي يوحي بأنّ هذه القوانين هي قوانين علمية بحتة وانّ هذه الحركة هي المرحلة النهائية لسلسلة التحولات الجبرية التاريخية، مستنداً الى قانون الجبر المادي للتاريخ، وقام بتدوين فلسفة التاريخ مرتكزاً على هذا الاساس.

وامعاناً في اعطاء الأصالة والأهميّة للنزاع الطبقي الذي كان نطاقه يتّسع بسبب ظهور الماكنة والرأسمالية الصناعية اوجع ماركس أسباب جميع الحروب البشرية التي حدثت عبر التاريخ الى العوامل

الاقتصادية ونظر الى الحضارات والحركات الاجتماعية والمدارس الفكرية الانسانية وقصة الانسان من الزاوية التي كان ينظر منها هو في عصر الماكنة والرأسمالية واصالة الانتاج والاقتصاد (أي القرن التاسع عشر في اوربا الغربية). امّا بالنسبة الى الدّين فقد كان ماركس يرى في وجه المسيح نفس الملامح التي كان يراها في وجه البابا وهنا يكمن خطأه! فالبابا كان أشبه بقيصر الروم منه الى عيسى المسيح ؛ الصياد الفلسطيني الحافي الذي كان تاج رأسه أكليلاً من الشوك وهو القائل: «لن يدخل خزّان الأموال الجنة حتى يلج حبل المرساة في سمّ الخياط».

ليس المقصود من البابا هو البابا في القرن التاسع عشر ولا حتى جهاز الكنيسة الكاثوليكية بل المقصود الطبقة الرسمية لرجال الدين الذين كانوا يتحكّمون بعقائد الناس على طول التاريخ وفي مختلف المجتمعات ويستخدمونها في تحكيم اسس نظامهم الظالم الذي يجعل من الاكثرية ضحية لـ«نبل» الاقليّة الحاكمة. وهذا هو السبب الذي دفع بماركس الى اعتناق المادية كأساسٍ فكري للنظام الاشتراكي متوسلاً بذلك لنفي الدين الذي يشكل الاساس الفكري لهيمنة (النبلاء) وحكومة الاستبداد والتحجر، وليجتث بذلك جذور العبادة التي ترتكز عليها جميع الأديان.

إذا أراد الانسان ان يفكر بحرية ويشاهد الاشياء بوضوح

وبصيرة، فعليه ان يمارس بنفسه الكشف والتحليل والتحقيق ويجتهد حتى يتوصّل الى حقائق الأمور ويحذر التقليد ويجتنب اجترار قناعات الآخرين، وعليه ان لا يتأثر بشخصية الأبطال والعظماء والقادة؛ لأنّ الحق هو المعيار في تقييم الرجال وليس العكس، يقولُ أمير المؤمنين (ع): «اعرف الحق تعرف أهله».

اذن علينا نحن المثقّفين المنتسبين الى مجتمع آخر وتاريخ آخر ووضع آخر ودين آخر وزمن آخر ان نحذر السقوط الى مستوى المؤمن العامّي المقلد الذي يعمل برسالة مرجعه الدينية العملية ويستفتيه في كل الامور. بيد ان هذا السقوط يبدو اليوم في عيون الكثير من اتباع «الموضة الفكرية» نوعاً من التجدّد والتقدّم.

ان قيمة أفكار ماركس -ان كانت هنالك قيمة في افكاره- تكمن في سعيه الى معرفة الحركة التي كان ينتسب اليها والهدف المقدس الذي كان يؤمن به وتحليلهما تحليلاً علمياً واعطائهما وجهة فكرية خاصة. فقد عمد ماركس الى كتابة التاريخ لصالح هذه الحركة وقام بتجهيزها بالفلسفة والمنطق وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم الانسان ومنح الطبقة العاملة التي كان يشعر بالمسؤولية تجاهها وعياً طبقياً وسلاحاً ايديولوجياً يمكّنها من البقاء والاستمرار في طريقها.

اذن، فالتقليد العلمي والفكري لا يقتضي منا ان نكرّر اعمال ماركس بطريقة عمياء ونأخذ بما أملاه علينا بعيون مغمضة، لأنّ هذا

النوع من التقليد يشبه كثيراً تقليد المريض الامي للطبيب المتخصص ويختلف تماماً عن تقليد الانسان السليم الذي يسعى ان يكون طبيباً كالطبيب الذي يعالجه وشتّان ما بين هذين النوعين من التقليد. لقد كان ماركس يرى الدين في وجه البابا ومحيّاه ويعتقد انّ دور الدين في المجتمع ليس بأكثر من الدور الذي لعبته الكنائس في القرون الوسطى. والسرّ في ذلك انه لم يكن يرى سوى الأديان الحاكمة على التاريخ فقد كان يرى دين موسى في حكم «الحاخامات والاحبار» ورسالة عيسى في نظام الكنائس واسلام محمد في سياسة الخلفاء، والتشيع العلوي من خلال الحكم الصفوي.

فإن أردنا أن نقلد ماركس في رؤيته هذه لن نكون اشتراكيين ولا مفكرين أصحاب حق بل سنكون مقلدين أذلاء اغلقوا عيونهم وآذانهم وخسروا انفسهم وفقدوا الثقة بها وسُلب منهم حق الرأي والاستقلال والقدرة على التمييز بين الخطأ والصواب، بل سنكون قد انكرنا المسلّمات ومسخنا الحقائق ورفضنا الايمان بكل شيء حتى بأعيننا وآذاننا وإدراكنا وفهمنا.

انّ معرفتنا بالتاريخ والدين هي اوسع واعمق بكثير مما كان يعرفه المفكر المادي في القرن التاسع عشر. فقد كان المفكر المادي آنذاك يرى الدين من منطلق كونه وليداً للجهل والخوف والنظام القبلي او النظام المادي والفكري الحاكم على المجتمع بينما تستطيع نحن اليوم

ان نفصل بين نظرتنا الى الدين كقابلية انسانية وبعد انساني خاص وبين نظرتنا اليه بصورته العينية المتحققة في ظلّ النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي ومرحلته التاريخية الخاصّة.

ان الدين هو شعور ينبثق عن وعي الانسان ومعرفته بنفسه ويدعو الانسان الى الكمال عن طريق تقديس القيم السامية من قبيل: الجمال والخير والبصيرة واللّطف والابداع والارادة والحريّة والمعرفة والكمال والهداية والعزة والعدالة والحق ومناهضة الظلم والجهل والضعف والذلّ و... ونجتمع كل هذه القيم في اطار التوحيد الذي يعدّ أكثر الأطر الدينية شمولاً، في معبود واحد وهو الله تعالى عز وجلّ

اما اذا استغلّ الدين من قبل السلطات الحاكمة لحفظ مصالحها فستحصل أسوأ فاجعة يسحق فيها الانسان في الانظمة المعادية للانسانية ويصبح الدين شهيداً في سجّلات التاريخ.

انّ رسالة المفكّر الحر تتجلى في العمل على انقاذ هذه الضحيّة واحياء شهيد التاريخ هذا لا نقبه وتكذيبه وتلويثه فإن لم يقم المفكر الحر بذلك فانّه يكون شريكاً لأعداء البشرية من الجلادين والسحرة والكهنة والفراعنة الذين اغتالوا الدين وأردوه قتيلاً خدمة لمصالحهم الطبقية الضيقة.

نعم، لقد لعبت الاديان الرسميّة دائماً دوراً طبقياً قذراً ضد الناس والانسانية ولصالح الطبقات الحاكمة ولكنْ ألم يكن للفلسفة والعلم

والفن والأدب والصناعة نفس هذا الدور عبر التاريخ؟

اذن ماذا على المفكر المسؤول ان يفعل؟ هل عليه ان يحرر هذه القيم من الاستثمار الطبقي ام عليه ان ينفيها من الاساس ويقف بوجهها بشكل مطلق ؟

لقد كان العلم والفن والصناعة والعمران في خدمة اصحاب القصور ولم يكن للطبقات المحرومة اى نصيب من العلوم والفنون، ولكن ألا يدعو الى السخرية ان نقرر اليوم الوقوف بوجه العلوم والفنون كونها كانت تخدم الطبقات الحاكمة فقط؟!

انّ علماء الاجتماع يعتقدون اليوم اكثر من المسلمين أنفسهم بأنّ الاسلام هو دين اجتماعي واقعي يؤمن بالطبيعة والاقتصاد والاجتماع بل هو دين سياسي بحت، فقد عدّ القرآن الكريم «القائمين بالقسط» في عداد «الانبياء» و«حزب الله الغالبين» ووعد المستضعفين الذين سحقتهم الانظمة اللا انسانية بإمامة الناس ووراثة الأرض مشيراً الى ان هذا الأمر سيتحقّق لا محالة وانه امر جبري ومحتوم، وقد كان النبي (ص) يؤكد على الحياة المادّية بصفتها مقدّمة ضرورية للحياة المعنوية ويعلن رسميّاً أن:

«من لا معاش له لا معاد له» وقد وقف (ص) حياته في سبيل تحطيم نظام الترف الفكري والاجتماعي والاخلاقي والاقتصادي. فكيف يمكن مقارنة هذا الدين مع الدين الصّوفي الذي يعتقد بأنّ فوق

الانسان وفلاحه لا يتحقق الا بالزهد والعبادة والرياضة والانزواء واعتزال المجتمع والمصير الاجتماعي بل حتى نسيان المجتمع والعالم؟! وكيف يمكن الحكم على هذين النهجين المتناقضين والقطبين المتضادين بحكم واحد؟!

فهل يمكن ان يكون هنالك مفكرٌ عاش المجتمع الاسلامي وحصل على حد أدنى من المعرفة عن الاسلام ولم يستطع التمييز بين الاسلام (الدين الحاكم في التاريخ) والاسلام (الدين المحكومة والضحية والشهيد) وهل يصحّ له ان يصدّق بأنّ الخلافة الاموية والعباسية والحكومات الوارثة لها هي استمرار حقيقي لرسالة نبي الاسلام (ص)؟!

ان هذا الاعتقاد هو بدرجة من السذاجة بحيث اننا لا نجده الا بين العوام الذين كانوا ضحية لأجهزة اعلام الجبابرة ومن المستحيل ان نراه بين المفكرين الواعين الذين يعرفون تاريخهم حق المعرفة.

ان الفكر والايديولوجيا يختلف تماماً عن الطب والتكنولوجيا ولا يمكن اقتباسه من نتاجات الآخرين ومن مخطوطات علماء اوربا. الفكر هو الوعي وامتلاك عينين بصيرتين قادرتين على رؤية الحقائق. والخطوة الاولى لكي يصبح الانسان مفكّراً هو التعرف الدقيق والحقيقي على التاريخ والثقافة الذاتية.

فهل يصحّ لأي مفكر معتدل ان لا يرى الاسلام في حياة محمد

ورسالته ومسؤوليته ويتخذ اعمال وممارسات أجهزة الخلافة معياراً في حكمه على الاسلام؟ وهل يصحّ له ان لا يرى علياً (ع) الذي لم يعش اي انسان ثوري في العالم مثل حياته ولم يقاتل اي انسان مثل قتاله ولم يحكم اي انسان مثل حكمه، ويتخذ وعاظ السلاطين معايير في تقييمه وحكمه؟ وهل يسوغ له ان لا يعرف اباذر الذي راح ضحية للصراع مع الرأسمالية والطبقة الحاكمة المستجدة ويتخذ عثمان الذي قضى عليه، منطلقاً لفهم الاسلام ومعرفته؟ وهل يصحّ له ان لا يعدّ بلال الحبشي الذي كان يرى في الاسلام حريته من الرقّ كمصداق اجتماعي بارز لدين التوحيد، ويعدّ عبد الرحمن بن عوف الذي كان يمتلك الف غلام وجارية مصداقاً عينياً لهذا الدين الحنيف؟ وهل يصحّ له ان يتخذ سلسلة الخلفاء والسلاطين الذين ورثوا الجاهلية وقلّدوا الأكاسرة والقياصرة ويغضّ النظر عن سلسلة الشهداء من ابناء النهضة الاسلامية الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقضوا نحبهم في سبيل اعلاء كلمة الله في الارض؟ وهل هنالك مفكّر لا يعلم اليوم انّ جميع الاديان الكبيرة كانت في باديء الامر تمرداً وعصياناً على القوى الحاكمة وثورة لانقاذ الناس من السلطة والعبودية؟ غير ان النظام الطبقي الحاكم يمسخ لصالحه دائماً ثمار الحركات الاجتماعية ويستخدمها من أجل تحكيم وجوده وتثبيت سلطانه ... ألم تصبح «الاشتراكية الديمقراطية» في اوربا اكبر مدافع ومحافظ على النظام الرأسمالي وأقوى مانع لحصول الثورة

العمالية العاومة رغم انّ الاشتراكية والديمقراطية كانتا ثمرتي ازكى الدماء واعز الشهداء وأوفى الرسالات الفكرية التحررية البشريّة؟

فلو لم يكن البابا وماركس لأثمرت النهضة العاومة المعارضة للنظام الطبقي الرأسمالي الاستغلالي التي تطالب بإنقاذ الانسان وتحريره من قيود المادّيّة العمياء والبرجوازية البشعة وتمكينه من تكوين فطرته الانسانية الحقّة وعرض قيمه الوجودية وابراز صوره الاستعدادية بواسطة تحريره من قيود الجشع والعمالة وتدوين فلسفة تاريخه لا على أساس نفي الدين بل على اساس ربط هذه النهضة الانسانية العارمة بنهضة الأنبياء الذين بعثوا من بين صفوف الناس وحطّموا بفؤوس التوحيد آلهة الشرك والأصنام التي كانت رموزاً للتفرقة العرقية والقومية والطبقية والقبلية. ودعوا الناس الى الفلاح والحريّة والعدل والمساواة والتقوى ورفض الظلم والجور والجهل والخرافة والسحر والتعلّق بالدنيا. وفي هذه الحالة ستنتصر الحقيقة وسترتكز الاشتراكية على الارادة والهدف المقدس الذي ينبثق عن عمق الفطرة الانسانية التي سعى الانسان الى تحقيقها طوال التاريخ بدلاً من ارتكازها على ألعوبة العوامل المادّيّة الديالكتيكية العمياء التي تعمل بشكل جبري ولا تتدخل فيها ارادة الانسان قط. وستكون الطاقة الدينية الهائلة في أنحاء العالم وخصوصاً في العالم الثالث سنداً معنوياً وروحياً وفكرياً لهذه النهضة بدلاً من ان تكون سدّاً ومانعاً كبيراً تستغله

ايادي الاستعمار والرأسمالية.

فعلينا نحن المفكرين في هذا العصر وخصوصاً المفكرين في العالم الثالث وبالذات عالمنا الاسلامي ان نخلّص أنفسنا من نتائج النزاع الفكري بين البابا وماركس ونربط الروح الثورية والهدف المقدس والنزعة الشعبية المطالبة بالعدالة والمناهضة للاستعمار والرأسمالية برسالة التوحيد التي طالما ناهضت الشرك بمختلف أشكاله الفكرية منها أو العرقية والقومية والطبقية. لنصل الى الغاية الكريمة المثلى وهي المساواة بين الناس في توزيع الثروة، ولكي ندوّن «فلسفة القدر التاريخي» بالشكل المطلوب ولكي نثبت للجميع انّ النظام الرأسمالي يجزّء الانسان ويمسخه ويمثّل به وانّ الدين الذي يدعو الانسان الى التكامل والتحلّي بالقيم الاخلاقية المتعالية لا يمكن له ان يبقى في هكذا نظام بل سينعدم مع انعدام الماهيّة الانسانية. فان لم يفعل فما هو بدين بل خرافة. وانّ الاشتراكية الحقيقيّة القادرة على صنع مجتمع عارٍ من الطبقات لا يمكن لها ان تتحقق إلّا عن طريق الدين، لأنّ الناس ما لم يتربّوا تربية اخلاقية ومعنوية صحيحة تمكّنهم من ايثار حقوقهم من اجل الوصول الى العدالة الاجتماعية سوف لا يكون بوسعهم صنع مجتمع تسوده العدالة الاجتماعية. إذ الحقوق ليست متساوية أبداً. وان النظام المادّيّ (Materialism) يؤول الى النظام الفردي (Indiridualism) لا محالة والعكس صحيح أيضاً. كما انّ الدين

لا يمكن له أن يتحقق قبل ان يتخلّص المجتمع من قيود الطمع والاستغلال والاستثمار والفواصل الطبقية ففي هذا المجتمع وحده يستطيع الانسان ان يتخلّص من المسخ والاستحالة الى «شيء» في نظام الماكنة والرأسمال والذوبان في نظام المال والاستهلاك والتحوّل الى قريسة او حيوان مفترس في نظام العلاقات الطبقية، وفي هذا المجتمع فقط يستطيع الانسان أن يعرف نفسه ويتّكيء على أصالة وجوده ويكوّن فطرة نوعه ويستعرض قيمه الانسانية المتعالية فتتكامل ذاته ويتخلّق بأخلاق الله ويصبح خليفته في الأرض وهذه هي دعوة الدين التي لا تتحقّق إلّا في مجتمع غير طبقي يرتكز على أساس «الكتاب والميزان والحديد» لا على أساس الجهل والتمييز والضعف وهذا هو معنى تحقق التوحيد في الحياة البشرية.

ندوة للاجابة على

الاسئلة والانتقادات

س: ان أغلب النصوص التي استندتم اليها في كتاب «معرفة الاسلام»[1] في خصوص نقل وقائع تاريخ الاسلام هي من مصادر أهل السنة، مع الأخذ بنظر الاعتبار ان تلك الوقائع لها تأثير اساسي في اصول عقائد الشيعة وان احتمال التحريف والتغيير في المصادر التاريخية لأهل السنة قوي جداً، لماذا لم تستندوا الى المصادر الشيعيّة في موارد الاختلاف أو تشيروا اليها في الهامش على الأقل؟ هل هناك دليل مقنع على اختيار هذه المنهجية؟

ج: نعم هناك أدلّة عديدة:

١ ـ لقد قلت في مقدمة مقالة «من الهجرة الى الوفاة»، وهي جزء من كتاب (معرفة الاسلام) وفي كتاب «محمد خاتم الانبياء» أيضاً انّي استندت في كتابة السيرة النبوية الشريفة غالباً على نصوص الاخوة أهل السنة وأتوقع من الاخوة أهل السنّة أيضاً ان يستندوا على نصوص اخوتهم الشيعة في هذه المجالات (وخصوصاً في المجالات التي يوليها الشيعة اهتماماً خاصاً) فانّه بهذه الطريقة فقط يمكن التقريب بين هذين

(١) اسلام شناسي.

الأخوين اللذين تباعدا عبر القرون.

٢ ـ حاولت استخراج «ما يهتمّ به الشيعة» من مصادر اهل السنة لأنّه لا يمكن الشك في اصالة العقائد المذهبيّة التي جاءت على لسان المذهب المخالف. وهذا ما دعاني لأرسم وجه الاسلام في كتاب «معرفة الاسلام» بخطوط شيعية اخذتها من علماء السنة. وأنّها لعمري علامة بيّنة لأولي الألباب تدلّ على حقانية الشيعة واصالة مذهبهم. وقد عمل بهذه الطريقة الكثير من علماء الشيعة العظام من قبيل العلامة الأميني في كتابه «الغدير» والسيد شرف الدين في كتاب «المراجعات» وغيرهم من العلماء الأفاضل[1]. وهذا هو سبب القيمة العلمية لنتاجاتهم، وهذه هي الطريقة الوحيدة لخدمة التشيّع واثبات أصالة هذا المذهب لأهل السنة ولكلّ من يرى التشيع مذهباً متأخراً أو يعتقد انّه من صنع العجم والايرانيين. إلّا ان هذا الأمر تحوّل الى «اتّهام» بالنسبة لي فقط ! لأنّه انتشر بين الرعاع والمخادعين ومن ورائهم اولئك الذي يرتزقون على الجهل والتفرقة واستغفال الناس ؛ الذين يسمون الخدمة خيانة والخيانة خدمة، ببساطة.

٣ ـ طبقاً للطريقة العلمية المتداولة في كتابة التاريخ، يجب

[1] حتى انّ آية الله محمد الصدر نقل جميع الروايات المتعلّقة بالامام المهدي (ع) في كتابه «موسوعة المهدي» عن النصوص والمصادر السنيّة ولم يستند على كتب الشيعة ونصوصهم قط.

الاستناد على أقدم النصوص، أي أقربها الى زمن الواقعة من الناحية التاريخية. ان هذه الضابطة وان كانت غير دقيقة مئة بالمئة إلّا انّها تعدّ ملاكاً جيداً في تقييم النصوص التاريخيّة. وبما انّ نصوص الشيعة في «التاريخ والسيرة» هي نصوص متأخرة من الناحية التاريخيّة (بسبب الوضع السياسي المتأزّم الذي عاشه الشيعة عبر التاريخ) آثرنا اختيار نصوص اهل السنّة كونها أقدم تاريخاً من نصوص الشيعة.

٤ ـ ان اتهام جميع المؤرّخين والمفكّرين المسلمين الذي لا ينتمون الى المذهب الشيعي او لا تنطبق جميع عقائدهم مع هذا المذهب بتهمة المخالفة لأهل البيت هو أمر بعيد عن الأنصاف والدقة.

إلّا انّ تلقين العدوّ الأجنبي الذي لا ينتمي الى ايّ من المذهبين لا السنّي ولا الشيعي جعل أغلب الناس في بلدنا يحملون هذا التصور الخاطئ.. علينا ان نعلم انّ مخالفي العترة الشريفة هم النواصب (كانوا أقلية صغيرة ولم يبق منهم إلّا النذر اليسير) وهناك بعض المغرضين وعدد يسير من أهل السنّة ممن تأثروا بتلقين النواصب أو كانوا عملاء للأجانب والأعداء..

لقد حاول العدوّ طوال السنين الماضية ان يلقّن الشيعة بأنّ جميع الأخوة أهل السنّة هم من النواصب كما حاول ان يلقن السنّة بان الشيعة هم من الغلاة القائلين بألوهية علي (ع) الفرقة التي يعتقد الشيعة انفسهم ببطلانها وشركها!

فإن قلنا انّ جميع المؤلّفين المسلمين وجميع الكتب الاسلامية المعتبرة هي كتب تخالف أهل البيت (ع) وزعمنا انّ فضائل علي (ع) وحرمة الائمة الأطهار (عليهم السلام) لم يعترف بها الا مؤلفو الاقلية الشيعيّة وكتّابها، وانّ جميع المذاهب الاسلاميّة والعلماء والمؤرخين والمحدّثين المسلمين من غير الشيعة هم من المخالفين للامام علي (ع) وأبنائه الميامين، فإننا نكون قد أصدرنا حكماً ظالماً لا أساس له من الصحّة، وقد يكون ناجماً عن عدم اطلاعنا أو قلّة إنصافنا وشدّة عصبيّتنا، ومثل هذا الحكم ليس لصالح العقائد الشيعية وعلى خلاف الحقائق الوثائقية المتّفق عليها والتي تشكل المبادي، الأساسية لهذا المذهب الحق. لأنّ كل من تمرّس على قراءة الكتب التاريخية وكتب الحديث الاسلامية الشهيرة يعلم انّ جميع اصول العقائد الشيعية الهامّة قد أوردت بدون استثناء، في المصادر الرئيسية لأهل السنة وفي كتب الحديث والسيرة والتاريخ والمنسوبة لغير الشيعة. وعندما نرى ان جميع عقائد الشيعة موجودة في مصادر وكتب اهل السنة القديمة، أليس من التضعيف للشيعة ولمبادئهم ان نتهم جميع تلك الكتب والمصادر الاسلامية ونشكك في مصداقيتها جميعاً، زعماً بأنّ فضائل علي (ع) والعترة الشريفة لم تذكر إلّا في كتب الأقلّية الشيعية ولم يُشَرْ اليها في ايٍّ من المذاهب والكتب الاخرى سواء العلمية منها أو التاريخية والروائيّة والكلاميّة والتفسيريّة وان اشير اليها فقد رُجِّح فيها مثلاً

أبوبكر وعمر وعثمان على عليّ ورجّحت عائشة على فاطمة ورجّح الخلفاء على الائمة!

انّ هذا الادّعاء ليس صحيحاً لأنّنا لا نجد فضيلة لعليّ وأهل البيت (ع) إلّا وقد وردت في هذه الكتب، وقد أشارت أكثر هذه الكتب الى أفضلية علي وأهل البيت (ع) على مطلق الخلفاء، والصحابة فيما وجّه الكثير منها ألذع الانتقادات الى الخلفاء ونقل الكثير منها عيوبهم وأشر على نقاط ضعفهم، وقد شمل هذا النقد كل الخلفاء حتى الشيخين وخصوصاً عثمان بن عفان.

٥ ـ لقد انتقد بعض السادة ومنهم السيد الأنصاري القمّي أو (الآراكي؟) الذي كان يحاضر في جامع اليزائرين في ايام محرم في السنة الماضية، طريقتي في التحقيق والتي استندت فيها على الكتب التاريخية لأهل السنّة وكان هذا النقد، النقد المنطقي الوحيد الذي تعرّضت له في التحقيق، إذ لم يراع أحد غير هذا الرجل المنطق والأدب في النقد.

لقد عرض السيد الأنصاري في انتقاداته نقاط ضعف الكتب التي استندت اليها (حتى تلك التي ليس لها اي ارتباط بتحقيقاتي ككتاب صحيح البخاري...) وأثبت انّ هذه الكتب تحتوي على احاديث ومضامين تاريخيّة ضعيفة (وحتى مزيّفة) متّبعاً بذلك الطريقة الرائعة التي اتّخذها العلامة الأميني في «الغدير» ثم قال متسائلاً: هل من

الصحيح ان نجعل هذه الكتب مصادر لتحقيق؟

انّ هذا الرأي هو رأي صحيح بنسبة خمسين بالمئة، والصحيح فيه هو وجود المضامين الخاطئة والأحاديث الضعيفة أو المزيّفة في تلك المصادر، إلّا ان النتيجة التي خرج بها السيد الأنصاري تبدو غير صحيحة من وجهة نظري لأنّ اخذنا والمحقّق لبعض الكتب كمصادر في تحقيقه لا يعني بحال انه يؤيّد كلّ ما في تلك الكتب بدون استثنا. بل انّه يؤيد الشيء الذي نقله من ذلك المصدر لا أكثر ولا أقل. ولو كان استنتاج السيد الأنصاري صحيحاً لما استطاع اي كاتب او محقق (في أي مجال) أن يجد كتاباً يستند إليه ويتخذه مصدراً في تحقيقه لأنّنا لا نعرف كتاباً يتّصف بالعصمة من ناحية السند أو الدلالة سوى كتب الوحي التي لم يسلم منها من التحريف إلّا القرآن الكريم. وعندما يكون الحديث عن التاريخ يزداد الطين بلّة لاننا لا نعرف كتاباً تاريخياً يمكن تصديق جميع منقولاته بدون استثناء.

ولكن عندما يصل الأمر اليّ يصبح الخطأ الطبيعي ذنباً لا يغفر ويلقّن عوام الناس انه اذا ارتكب شخص من امثالي خطأً في احد كتبه او محاضراته فإنّ كتابه بل جميع كتبه وحتى وجوده سيكون جريمة وكفراً كما صرّح احدهم بقوله ان شاباً مسلماً مؤمناً اراد ان يذهب ويخلّص الناس من وجوده ـ أي وجودي أنا ـ بطعنة خنجر، بينما نرى في منطق الدين العلمي انه اذا اخطأ المحقق في رأيه ـ حتى لو كان

مجتهداً رفقيهاً ومرجعاً لتقليد كلّ الناس وبسبب خطأه يخطئ الملايين من الناس ـ فإنّ له اجراً في عمله: «للمصيب أجران وللمخطىء أجر واحد»!

٦ ـ لقد ذكرت في مقدمة كتاب «معرفة الاسلام» اني اودت ان ارى النبي (ص) في المدينة المنورة من أقرب فاصل زمني لأكتب سيرته بطريقة كأنّي كتبتها قبل ألف سنة (معرفة الاسلام ص ٤٥٦) فهل يوجد مصدر بهذا القدم والاعتبار سوى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري؟

٧ ـ لقد ذكرت في تلك المقدمة: «اني تصرّفت عن وعي في الاستناد على المصادر القديمة التي يرجع تاريخ بعضها الى أكثر من ألف سنة لأنّني اعلم انّ أقدم مصادرنا التاريخية دوّنت في زمن الحكم الأموي والعباسي وان الخلفاء والسلاطين في هاتين الحكومتين كانت لهم اليد الطولى في تحريف الحقيقة والعلم والدين لصالح حكمهم مستخدمين بذلك سياسة الترغيب والترهيب تارة، والخطط الماكرة أخرى كما كنت على حذر أيضاً من انّ السياسة التي ترتكز على النظام القبلي وتجعل الدين آلة لها هي اسوء آفة تصيب «الدين والتاريخ». ولذلك سعيت قدر الامكان الى ان اصون نفسي من الألاعيب السياسية الاموية العباسية التي أرعبت كبار مؤرخينا تارة وجعلت منهم عملاءً لها أخرى.

٨ ـ لقد استندت في كتابة السيرة النبويّة الى سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري، وقد ظنّ البعض انّ هذين الكتابين كانا المصدر الوحيد في كتابة كلّ السيرة النبويّة، ولا عجب في ذلك لأنّهم قد لا يعرفون شيئاً عن فنّ كتابة التاريخ فانّ هذا المنهج في كتابة التاريخ يؤول الى موضوع معقّد تختلف فيه الآراء وهو نفس المنهج الذي يستخدم في تصحيح الكتب ذات النسخ المتعدّدة والمشتتة لكي يتضاءل احتمال الوقوع في الخطأ الى مستوىً معقول.[1]

ومن المثير للدهشة هو انّ نص السيرة النبويّة التي دوّنتها في ثلاثة فصول «من هو محمد ؟»، «تحليل شخصيّة محمد» و «ملامح محمد» تختلف تماماً من ناحية الروح والرؤية والحكم والتحليل عن سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري. وامّا من ناحية الأخبار ونقل الحوادث العادية او الحوادث المتفق عليها في حياة النبي (ص) (من قبيل شرح

(١) كما يستند الفقهاء في المذهب الشيعي الى الكتب الاربعة: «الكافي» ، «التهذيب» ، «الاستبصار» و «من لا يحضره الفقيه» في الوصول الى الحكم الشرعي، غير انّ هذا لا يعني أنّهم يقتبسون مضامين هذه الكتب او يترجمونها او ينقلون الفتاوى بل انّهم يجتهدون في الوصول الى الفتوى ويرفضون بعض المضامين المنقولة في هذه المصادر بل يتكرونها بشدّة من قبيل القول بتحريف القرآن الذي ورد في كتاب «الكافي». (المقصود بتحريف القرآن هو حذف بعض الآيات القرآنيّة من القرآن الكريم حيث نقل كتاب «الكافي» وبعض الكتب الأخرى روايات في هذا المجال، ولم يزعم أحد إضافة شيء الى القرآن).

الحروب وتوقيع الاتفاقيات والحوادث والاوضاع العامة ...) فليس هناك خلاف بين المذهبين السنّي والشيعي وان كان ثمة خلاف فهو نادر ولا يرتبط بالمذهب الشيعي أو السنّي. وأما بالنسبة لموارد الاختلاف التي هي محل اهتمام السنّة والشيعة والتي ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بقضايا خاصّة تتعلّق بالمذهبين فقد اجتزت فيها حدود هذين الكتابين بل جميع كتب اهل السنّة ولم أبحث في الكتب التاريخية الشيعية فحسب بل بحثت في كتب التفسير والحديث ونصوص كتاب نهج البلاغة وحاولت العثور على الحقائق التاريخيّة كما هي. ولو ألقى القارىء المطلع نظرة عابرة على كتاب «معرفة الاسلام» ورأى مضامين من قبيل: عليّ في معركة احد (ص ١٨٣)، عليّ في حنين (ص ٣١٨)، غضب عليّ (ص ٣٦٠)، مهمة علي الخاصة في ابلاغ البراءة (ص ٣٨٠)، قدوم علي من اليمن واستنتاؤ، (ص ٤١٩)، مصير الامّة بعد النبي (ص ٤٢٣)، الإمامة وعلي (ص ٤٢٧)، عصبة أبي بكر في وجه علي (ص ٤٣١)، غدير خم ونزول آية تكميل الدين بعد خطبة الغدير (ص ٤٣٢)، المماطلة في ارسال جيش اسامة (ص ٤٣٣)، احضار علي للصلاة (ص ٤٤١)، طلب القلم والدواة للوصيّة (ص ٤٤٣)، التآمر للحيلولة دون تدوين الوصية، نداء النبي الصامت، رأس النبي في حجر علي (ص ٤٤٦)، لم يجب أحد سوى علي (ص ٤٩٠)، عصبة أبي بكر (ص ٤٩٣)، أبو ذر (ص ٤٩٥)، علي وأبو ذر (ص ٥٨١)... لأدرك مدى

استقلالي عن كتب أهل السنة ومدى نجاحي في استدلال مبادىء الشيعة من لسان وقلم أهل السنة ومصادرهم الرئيسية؛ ولأدرك السبب الذي جعلني أكتب أحد فصول الكتاب تحت عنوان «موت النبي» وأشرح أحداث السنة الأخيرة من حياته في هذا الفصل وكيف انّي سعيت بشكل مباشر او غير مباشر الى عرض ملامح عليّ في وجه النبي (ص) وحاولت ان اعرض حقيقة اهتمام النبي بعليّ وعنايته به في كلامه وعمله وجميع حالاته وتصرفاته وحتى قراراته السياسية والعسكريّة، خصوصاً في السنة الأخيرة من عمره، وسيرى القارىء ايضاً انّ قلمي واسلوبي يتغيّر عندما يكون الحديث عن علي (ع) وان كلماتي تكاد ان تطير شوقاً عند وصفه وتوشك ان تلتفّ حول نفسها ألماً عند بيان آلامه واحزانه وسوف يرى ان الذين حاولوا ايهام الناس بانّ هذا الكتاب يتنافى مع الفكر الشيعي هم يبعدون كل البعد عن الانصاف مهما كان دافعهم وهدفهم.

س: هناك شائعة تقول أنّكم لا تؤمنون بخلافة الامام علي (ع) طبقاً لحديث غدير خم المروي عن النبي (ص) غير انّ كتابكم «معرفة الاسلام» يفند هذه الشائعة. الرجاء الافصاح عن رأيكم في هذا المجال بشكل صريح وبدون أي ايهام:

ج: أعوذ بالله! فكتاب «معرفة الاسلام» موجود وقصة الغدير مذكورة فيه بوضوح وقد أثبتُّ في الكتاب عدم كفاءة اي شخص كان

يحتمل ان يلتفّ الناس حوله بعد وفاة النبي (ص) مشيراً الى انّ علياً (ع) هو الشخص الوحيد الذي يليق به ان يحرز هذا المنصب وذكرت في الكتاب قصة الغدير بحذافيرها.

انّ شخصاً مثلي اذا اراد الافصاح عن رأيه وافكاره في الله والغدير والنبي والقرآن والامام وعلي وعمر وأبي ذر وعبد الرحمن بن عوف والحسين والامام الموعود والدّجال والدعاء والحج والامامة والعدل و... فليس امامه سوى «الحديث» و«الكتابة» ولكن كيف به لو كان الناس في مجتمعه لم يعوّدوا انفسهم على «الاستماع» و«القراءة»؟!

مثلاً انهم يقولون: انك لم تطرح مسألة الولاية بشكل واضح وصريح ولم تتحدث عن حق علي (ع) بشكل وافٍ عندما تحدثت عن الشورى في فصل «قواعد الاسلام» في كتاب «معرفة الاسلام» وهذا كلام صحيح غير انّي ذكرت في مقدمة الكتاب انني أخذت هذه «القواعد» من «فريد وجدي» وانما نشكّل مجموعة دروسي الاكاديمية في تاريخ الاسلام في النصف الأول للسنة الدارسية وقد خصصت النصف الثاني من السنة الدراسية للبحث في الولاية والامامة وموضوع السقيفة. وقد طبع هذا البحث ونشر في الأسواق.

صحيح اني لم اذكر شيئاً عن الولاية والامامة في هذا الفصل الذي نقلته عن فردي وجدي غير اني كتبت عشرات الصفحات في نفس الكتاب في بحث السيرة النبوية وذكرت عشرات المرّات قضية

علي وحقه وامامته وعرّضت بضعف الخلفاء وعصبة أبي بكر وضرورة العمل بوصية النبي (ص) ونقلت قصة الغدير بتفصيل واستنكرت مبدأ البيعة والشورى والنظام الديمقراطي في الحكم. ثمّ اني كتبت بعد كتاب «معرفة الاسلام» أكثر من ألف صفحة عن امامة أهل البيت وعقائد الشيعة وتاريخهم وقد طبعت هذه الكتب أكثر من مرّة وبأعداد غفيرة جداً، كما سجّلت لي محاضرات عديدة في هذا الموضوع قد يتجاوز عدد ساعاتها عن الخمسين ساعة ووزّعت آلاف الاشرطة المسجّلة في انحاء هذا البلد بحيث يعرف كل اطفال المدارس -ممّن ألقى السمع وهو شهيد ولم يكن له اي غرض او مرض- شيئاً عن آرائي وافكاري في المذهب الشيعي كما ألقيت في السنوات الستّ الماضية في حسينية «الارشاد» أكثر من مئتي محاضرة حول الشيعة والولاية واهل البيت (ع) وقد سجّلت كل هذه المحاضرات ووزّعت في الاسواق ويمكن الحصول عليها أو تسجيلها بكلّ سهولة. كما كانت جميع الفعاليات المسرحية التي اجراها الطلبة الفنّانون في الارشاد بدون استثناء تختص بالمذهب الشيعي من قبيل: أبي ذر الغفاري، الحسين وارث آدم، ثورة المعدومين الشيعة (سربداران)، ثورة التوابين و...

وأما في موضوع مسألة الولاية فانّ الكتاب الوحيد الذي كتب بلغة علميّة وبأسلوب سلس وارتكزت مضامينه على اساس الدراسات التاريخية والقرآن والسنة النبوية الشريفة (لا على اساس التهريج

والسب والشتم والافتراء والاستناد الى امور تتنافى مع روح الاسلام والتشيّع والعقل السليم وتسبّب الاساءة للشيعة وهتك حرمتهم) هو كتاب (الخلافة والولاية من وجهة نظر القرآن والسّنة) والذي نشرته حسينية الارشاد حيث يضمّ هذا الكتاب بين دفّتيه موجزاً ملخصاً للدراسات العميقة التي قام بها الاستاذ محمد تقي شريعتي والتي تشتمل على أقوى الدفاعيّات العلمية عند الشيعة وأكثرها منطقاً. فقد ردّ الاستاذ في هذا الكتاب جميع الاتهامات والشبهات التي طرحها المخالفون خلال القرون الاربعة عشر الماضية مراعياً بذلك الانصاف العلمي وأدب الجدل ومستنداً الى القاعدتين الرئيسيتين اللتين تتّفق عليها جميع المذاهب الاسلامية. وقد اثبت الاستاذ للأخوة السنّة ولمفكرينا الشيعة ممن تأثّر منهم بأبواق العدوّ وإعلامه أو حمل افكاراً سلبية ازاء مبادىء التشيع العلوي بسبب الانحراف والتخلّف الاجتماعي والفكري والاعلامي الذي يعاني منه بعض دعاة الدفاع عن هذا المذهب... اثبت لهم انّ المذهب الشيعي هو الروح الحقيقية والمنهج القويم للاسلام وانّ المثقّف الحرّ الذي جعل من القرآن والسنّة قدوة له وتعرّف على روح الاسلام والعدالة في التاريخ واستطاع ان يخلّص نفسه من شتى القيود سواءاً خلافة بني امية وبني العباس أو الحكومات التي ورثتها أو الخطط والمؤامرات الاستعمارية التي زرعت بذور الفتنة والتفرقة بين المسلمين، سيأخذ طريقه شاء أم أبى الى بيت فاطمة

وسيسمع الاسلام من لسان علي تاوكاً وراءه قصور الظلم في دمشق وبغداد ومساجد الضرار والمصاحف المرفوعة على الرّماح.

إلّا انّ هذه الجماعة المبتلاة بداء التحجّر والانغلاق لاتزال تنهال علينا بأنواع التّهم والافتراء وتعكّر الاجواء خدمةً للاعداء رغم كل الجهود العظيمة التي بذلت في هذه المدّة القصيرة ورغم ان هذه النهضة الاسلاميّة التقدمية المرتكزة على رؤية شيعيّة علويّة تحرريّة قد لاقت اقبال المفكرين وأصحاب القلم وخصوصاً الشباب المثقف والطلبة الجامعيين داخل القطر وخارجه، ورغم جميع الأدلّة والقرائن والمحاضرات والأعمال المسرحية والاجتماعات وملتقيات البحث والنقد والدروس والمعالم الواضحة والنجاحات الباهرة التي أذعن لها العدوّ والصديق.

اذن ليس بوسعنا إلّا ان نتحدث ونكتب ونردّ على اشاعات الأعداء والمغرضين والأنانيين والانتهازيين واولئك الذين يسمّون أنفسهم «مؤمنين» غير انّهم لا يجدون ما يمنعهم من الطّعن والتنكيل بمن وقفوا حياتهم في سبيل «الايمان» بل حتى تكفيرهم قبل قراءة ما كتبوا أو الاستماع الى أحاديثهم مكتفين بالاستناد الى المعلومات والاخبار والتّهم الصادرة عن مصدر مشكوك ومجهول وموهوم اسمه «قالوا»!

أريد أن أقول لهؤلاء الاخوة: اخوتي، نحن جميعاً ضحايا

لمؤامرة واحدة فنحن وايّاكم يجمعنا ايمان واحد وألم واحد وطريق واحد، فكلّنا مسلمون وكلّنا نؤمن بكلّ وجودنا واخلاصنا بالعترة الشريفة وكل هذه الاشاعات هي من أجل ان لا نتعرف على بعضنا وأن لا نقف وقفة واحدة في وجه عدونا المشترك.

ولهذا نرى ان تدوين الآلاف من الصفحات والتحدث مئات الساعات في اثبات التشيع والامامة والوصاية لا يغني شيئاً وان كل ما كتبته وتحدثت به في موضوع العترة الشريفة والاخلاص لها وجميع آرائي العلمية والعقائدية والتاريخية الجديدة في موضوع عظمة علي(ع) واصالة مدرسته لا تدلّ بمكان على انتمائي للمذهب الشيعي! حسب ما تراه هذه الجماعة التي تحكم على الناس بدون مطالعة كتبهم والتدقيق في امورهم بل تستند في حكمها على اخبار وكالة (قالوا)!

اذن عليّ أن اقلد استاذي الحبيب أبا ذر الغفاري الذي أخذت منه اسلامي وتشيّعي وهدفي وألمي ومحنتي وشعاري وأشاركه في صرخته التي هزّت المدينة والشام وفي تطرفه الذي لم يراع فيه «المصالح»! فلم يجلس أبو ذر جلوس أهل العلم والتحقيق والنقد ليطرح «الحقائق» في لفيف من العبارات الغامضة وأمام العلماء والخواص فقط ورعاية للمصالح بل نراه يحمل عظماً بيده في الزقاق ويذهب الى خليفة رسول الله ويصرخ بوجهه:

«يا عثمان انّك انت السبب في فقر الفقراء وغنى الاغنياء»

ويصرخ في وجه كعب الاحبار صاحب الجلالة والاحترام والرجل العالم بالدين عند اليهود والاسلام والذي كان مرجعاً للصحابة في تفسير القرآن وفهم الاسلام: «يا ابن اليهودي أتريد ان تعلّمنا ديننا؟!» ثم يضربه بعظم البعير ـ سلاحه الوحيد ـ ويشجّ به رأسه ليُنفى الى الشام حيث معاوية وقصره الأخضر ليصرخ بوجهه هو الآخر: يا معاوية ان كان هذا القصر من مالك فهو اسراف وان كان من مال الناس فهو خيانة! ويذهب الى المسجد ليقرأ آية ﴿والذين يكنزون﴾ ويروي الأحاديث التي لم تكن المصالح تقتضي روايتها ويصرّ على قراءة هذه الآية ورواية تلك الاحاديث ليثير غضب كبار الصحابة واصحاب المراكز القويّة في السلطة من المهاجرين والانصار ممن اشتركوا في غزوات الرسول وكانت لهم سابقة طويلة في الاسلام. اتّهموه بالكفر والعصيان والتمرد على قوانين الشرع والخروج من الاسلام والسعي الى بث التفرقة بين المؤمنين وزرع بذور الاختلاف بين المسلمين، بقي وحيداً بعد ان نفاه خليفة الاسلام من المدينة وواليه من الشام وسلقه أصحاب المصالح من الشخصيات الاسلامية بألسنة حداد واتهموه بالارتداد عن الدين والكفر بالله ورسوله والقرآن والمعاد؟

قبل سبعة عشر عاماً وعندما كنت أكتب قصة أبي ذر ووصلت الى الوقت الذي نفي فيه من الشام الى المدينة، كنت استغرب من كلامه عند ما خاطب الناس ممن جاء منهم لتوديعه قائلاً: ايها الناس انّي اشهد ان

لا اله إلّا الله واشهد انّ محمداً عبده ورسوله!

ولكنني أعلم الآن لماذا فعل ذلك؟ لأن أهل الشام كانوا جميعاً ضحايا لإعلام معاوية المضلّل وكانوا قد أخذوا اسلامهم من أجهزته الدعائية والتي كانت تبلّغ للاسلام والشخصيات والحوادث الاسلامية بالشكل الذي تقتضيه مصلحة معاوية ونظامه وطبقته، وهذا هو السبب الذي جعل الناس يتساءلون بدهشة عندما أخبروا بمقتل علي في المسجد. فماذا كان يفعل علي في المسجد؟ أكان يصلي؟! ثم اننا نعلم ايضاً انّ الامام السجاد وعمته زينب (ع) عندما دخلا مدينة دمشق وهم يسيرون امام القافلة لم يكن الناس يعرفونهم بل كانوا يشتمونهم للحصول على الثواب لأنهم كانوا يظنّون انهم من الخوارج الذين يريدون زرع بذور الفتنة. ان اسلام أبي ذر وقرآنه كانا يهددان النظام الأموي من جهة، ويعرّضان للخطر مصالح الخطباء والمفسرين والفقهاء والصحابة وائمة الجمع والجماعات ممن كانوا ينتمون لهذا النظام من جهة اخرى، وهذا هو السبب الذي جعلهم يتهمونه بالكفر والارتداد لأنّها اسهل طريقة للتخلص منه. كما انّ افضل تهمة في المجتمع الشيعي هي ان يتهموا الشخص بأنّه ليس شيعياً بل هو من السنّة والوهابيين!

وهذا هو السبب الذي جعل أبا ذر يضطر الى اعلان شهادته بعد خمس وأربعين سنة من القتال والجهاد في ركاب الرسول والخدمة

والتعليم في سبيل الاسلام، والأعجب من ذلك هو ما كتبه الامام الحسين (ع) في وصيته التي أعطاها الى أخيه محمد بن الحنفية عند تركه المدينة. فكانت هذه الوصية تبتدىء بهذه العبارة: «انّ الحسين يشهد أن لا اله إلّا الله ...» فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ولذا أرى من الضروري ان اعلن بصراحة عن تشيّعي وعن اصول عقائدي التي كنت عليها طوال عمري وقدّمت في سبيلها شبابي وعشرين سنة من دراستي وكتابتي وكلامي وعملي وان اقول: «انني المدعو علي شريعتي المتّهم بجميع الاتهامات التي يقدر اللسان أن ينطق بها، اعتقد اعتقاداً كاملاً»:

١ ـ وحدانية الله .

٢ ـ حقانية جميع الانبياء من أدم (ع) حتى محمد (ص) .

٣ ـ رسالة النبي محمد (ص) وخاتمية نبوته .

٤ ـ ولاية الامام علي (ع) وامامته ووصايته.

٥ ـ العترة الطاهرة بصفتها باب العصمة الوحيد للوصول الى القرآن والسنة .

٦ ـ انّ اعلان النبي (ص) عن امامة علي (ع) ووصايته لم يتمّ في غدير خم فحسب، بل في واحد وعشرين مكاناً آخر استخرجتها ودرّستها جميعاً.

٧ ـ ان الشورى (البيعة والاجماع والديمقراطية) هو مبدأ اسلامي

الا انّه لا يعمل به إلّا في حالة عدم وجود المبدأ الأهمّ وهو الوصاية المستندة الى كلام الوحي ، وانّ التمسّك بهذا المبدأ في شورى السقيفة هو تعسّف باستعمال مبدأ من اجل سحق مبدأ آخر ذي اهمية اكبر وهو وصيّة النبي (ص) وحق علي (ع).

٨ ـ انّ النبي (ص) كانت له رسالتان: احداهما ابلاغ الوحي (النبوة)، والثانية : بناء الامة (الامامة). وقد ختمت رسالته الأولى في زمن حياته (ص) إلّا ان رسالته الثانية كان عليها ان تستمر لعدة اجيال متوالية (لثلاثة قرون) تحت قيادته هو وأوصيائه الاثني عشر. بعبارة أخرى ان النّبي (ص) كان خاتماً لرسالة «نبوّته» وانّ الائمة (ع) كانوا خاتمين لرسالة «امامته».

٩ ـ لم يجر التاريخ حسب ارادة النبي (ص) وتنبؤه بل اخذ ينحرف بعد السقيفة بالتدريج فانشعب الاسلام الى شعبتين رئيسيّتين: التسنن وهو الاسلام الذي سيّرته الطبقة الحاكمة وترعرع على يد الحكام والأئمة التابعين لهم، والتشيع وهو الاسلام الذي أخذ مجراه بين الأوساط المحرومة والناس المظلومين الناشدين للعدالة. فأصبح الأول اسلام الخلافة والتمييز والاستبداد والاستغلال، وظلّ الثاني اسلام الامامة والعدالة والحرية والمساواة.

١٠ ـ ان الخلافة هي التي انتصرت في التاريخ، ولم تتحقق الامامة على الصّعيد الاجتماعي فحصلت الغيبة .

١١ ـ انّ عصر الغيبة (ابتداءاً من غيبة الامام الثاني عشر حتى ظهوره في آخر الزمان) هو عصر مسؤولية الناس في القيادة الاجتماعية وهو العصر الذي يختار الناس فيه قائداً لهم تحت عنوان «نائب الامام».

١٢ ـ انّ مبدأ «انتظار الفرج بعد الشدّة» هو الايمان بدين الاعتراض والايمان بـ«الفلسفة الجبرية للتاريخ» وزوال النظام الاجتماعي الظالم والتمييز الطبقي الجائر زوالاً نهائياً. فمعنى الانتظار هو انّ قائم آل محمد (عج) ينتظر ثورة الناس على الظلم المهيمن على العالم وان الامام الموعود المنتظر المسلّح القائم الصمصام المنتقم الذي سيملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً هو الذي ينتظر في الحقيقة ثورتنا.

١٣ ـ انّ القول بأنّ اصول المذهب الشيعي هما «الامامة» و«العدل» وان التوحيد والنبوّة والمعاد هي اصول الدين الاسلامي، قول غير صحيح لأنّه يستبطن اتهام الشيعة بأنّ مذهبهم هو الاسلام ومعه شيء آخر. بل اعتقد انّ التوحيد والنبوة والمعاد هي الاصول الثلاثة للدين بمعناه الأعمّ لأنّ الدين الذي يفتقد احد هذه الاصول ليس ديناً وانّ للأسلام أصولاً أخرى وهي «الإمامة» و«العدل» وانّ التشيع لا يعني شيئاً سوى الاسلام أي القرآن والسنّة وانّ هذه المعادلة هي المعادلة الصحيحة:

التشيع العلوي = التسنن المحمّدي = الاسلام – (الخلافة السياسية + أنواع التمييز العرقي والقومي والطبقي).

١٤ ـ كما اؤمن بالتقليد (بمعنى تقليد الناس للفقيه المتخصص في الفروع العلمية والاحكام الفقهية أو التقليد الفني والتخصّصي والعلمي لا التقليد العقلي والفكري ولا التقليد في اصول الدين).

١٥ ـ كما اؤمن بالتقيّة لا بسبب الخوف، بل حفظاً للإيمان ولا تشبّهاً بالبطّالين الذين لا يشعرون بأيّ مسؤولية بل تشبّهاً بالمؤمنين الذين يجاهدون سرّاً من أجل انتصار الحق والعدل والإمامة (مبدأ الكتمان في النضال) واؤمن أيضاً بتقيّة الشيعة في المجتمع الإسلامي الكبير تجاه المسلمين من أهل السنة كفاً للتطرف المذهبي والنعرات الطائفية وسعياً الى توثيق أواصر الودّ والمحبة وتحقيق الوحدة بين المسلمين ضد عدوّهم المشترك.

١٦ ـ وأؤمن بالاجتهاد بمعنى الجهد العلمي الحرّ الذي يبذله المتخصصون الواعون في البحث الدائم عن الحقائق الاسلامية والتكامل في فهم الاسلام والاجابة على المسائل المستجدّة والمطالب الاجتماعية الملحّة والمشاكل التي يواجهها الناس في كل عصر ومصر.

١٧ ـ واؤمن بالمرجعية العلمية ونيابة الإمام لتصدّي القيادة الفكرية والاجتماعية وتعبئة الطاقات وتوظيف القوى والامكانيات من

أجل نصر الدين والاهتمام بحياة الناس وتأصيل ثقافتهم الدينية والتاريخية.

١٨ ـ كما أؤمن بدفع الزكاة وسهم الامام لتأمين الميزانية الاقتصادية من اجل ادارة المؤسسات العلمية والاجتماعية وتنفيذ البرامج والأهداف العلمية للمجتمع الشيعي (لا مجتمع الشيعة).

١٩ ـ وأؤمن باقامة مراسيم العزاء في شهر محرم وعاشوراء واحياء ذكر الائمة (ع) وتأسيس الصفوف والمجالس الدينية وحتى البكاء بمعناه الصحيح، وهو توعية الناس وتثقيف المجتمع واحياء رسالة الشهداء لا بمعنى كونه عادة ورائية سنوية، لأنّ الشهيد حيّ يرزق ولا يحتاج لمن يبكيه، بل يحتاج الى من يسير على دربه، فالشيعي هو السائر على درب عليّ والحسين وزينب والعترة الشريفة، والتشيع هو عمل حقيقي، فهو لا يعني العبودية التي تتنافى مع التوحيد ولا يعني أيضاً الحب لأنّه أمر عاطفي يفتقد الى المعرفة والعمل.

٢٠ ـ كما أؤمن بشفاعة النبيّ والائمة الأطهار (ع) وأؤمن حتى بتراب شهيد الحرية العظيم الامام الحسين (ع) كعوامل مهمّة في نيل «الأهليّة اللازمة للنجاة» لأنّه لا ينال الشفاعة في يوم القيامة الا من كان أهلاً لها[1].

٢١ ـ وأؤمن بالدّعاء لا بوصفه وسيلة للتخدير وبدلاً للعمل

(١) راجع الآية (٢٣) من سورة الرعد والآية (٨) من سورة غافر.

والمسؤولية وطريقاً للنجاة الفردية أو طريقاً فردياً للنجاة بل عكس ذلك أي بوصفه عاملاً قوياً في تنمية القيم الانسانية المتعالية وطرح المطالب الرفيعة وتلطيف الأرواح من الصدأ والرّجس، ونرى الدعاء في أكمل أشكاله في مدرسة الامام السجاد (ع) يتجلى فيه «الحب والافتقار والوعي والنضال».

٢٢ ـ واخيراً أؤمن بالتشيّع العلوي تشيع الشهادة الأحمر لا تشيع العزاء الأسود.

س: لقد ذكرتم في كتاب «معرفة الاسلام» (طبع مشهد ص ٤٤٥) انّ النبي (ص) ابتسم ابتسامة تدلّ على الرضا عندما رأى الناس يصلّون مع أبي بكر وطلب منه ان يواصل امامته بل حتى انه ائتمّ به وصلّى الى جانبه وهو جالس. هناك سؤالان في هذا المجال، اولاً: طبقاً لما ذكرتموه في هامش الصفحة (٦١٥) والرواية التي رويتموها في الصفحة ٤٤٦، كان النبي (ص) قد رشح علياً (ع) للصلاة بالناس فهل تعتقدون حقاً انّ النبي (ص) ينسى حساسيّة هذه الصلاة ويغضّ النظر عن احتمال التعسّف الذي ينجم عنها ويسمح لأبي بكر ـ رغم ارادته ـ ان يعيّن نفسه لخلافة المسلمين وادارة امورهم؟

ثانياً، هل تعتقدون أنتم (لو فرضنا صحة هذه الرواية) أنها دليل على موافقة النبي (ص) على امامة أبي بكر للصلاة أو خلافته في المستقبل؟

ج: هذا هو نصّ العبارة التي وردت في كتاب «معرفة الاسلام»:

«في صباح يوم الاثنين..اعانته صحوة الموت على النهوض من فراشه...رفع الستار فشاهد الناس يصلّون مع ابي بكر..غمرته الفرحة لأنّه شاهد المسجد والناس مرّة أخرى وألفى المسلمين وهم يحافظون على وحدتهم وعظمتهم رغم غيابه عنهم».

ـكما تلاحظون ـان السبب في ابتسامة النبي وفرحته هو اتحاد المسلمين وعظمة صلاتهم ورؤية المسجد والناس بعد مرض طويل ألمّ به لا صلاة أبي بكر. إلّا ان افتعال كل هذه الضجّة والتهم والسبب الذي صيّر صلاة أبي بكر في هذا الكتاب كقميص عثمان هو قضيّة تاريخيّة وليست عقائدية.

فالمسلمون من أهل السنّة يقولون: ان أبا بكر كان اماماً للجماعة في ذلك اليوم بينما ينكر الشيعة هذا الأمر.

انّ اهميّة هذه الصلاة هي بسبب تشبّث أهل السنة بها لفقدهم للأدلّة والبراهين الكافية تبعاً للمثل القائل «الغريق يتشبّث بقشة»، فهم يستندون الى حديث شخص ما (عمر او شخص آخر) اذ قال آنذاك:

«سنختار لدنيانا من اختاره النبي لديننا».

هنا يمكننا الاحتجاج مع اهل السنة بطريقين: الأوّل هو انّ أبا بكر لم يصلّ بالناس في ذلك اليوم، بل انّ النبي (ص) هو الذي وقف

للصلاة بنفسه. إلّا انّ هذا الاحتجاج لا ينتهي إلى أي نتيجة لأنّ طرفي النزاع سيستند كل منهما الى كتبه واسانيده الخاصّة ولن يقتنع بما يحتج به خصمه.

امّا الطريق الثاني فهو ان نفترض ـ مماشاة للخصم ـ انّ أبا بكر صلّى بالناس فعلاً ثم نتساءل: أوّلاً: هل يحقّ للناس الذين اقتدوا بصلاة أبي بكر ان يختاروا الخليفة؟ وقد اثبتنا بأدلّة واضحة انّ العربي الذي كان يعيش قبل أربعة عشر قرناً من الزمن كان يفتقد البلوغ والنضج الكافي لتأسيس حكومة ديمقراطية ترتكز على حق الانتخاب والشورى.

ثانياً: هل تصحّ الشورى التي لم يحضر فيها بنو هاشم والكثير من الصحابة الكرام من أمثال سلمان وأبي ذر وعمّار والمقداد وسعد بن عبادة والكثير من الانصار؟ ولذا نرى أمير المؤمنين (ع) ينتقد هذه الشورى في احد أشعاره المشهورة.

وثالثاً: هل كان أبو بكر أهلاً للخلافة ولم يكن في الأمّة الاسلامية من هو اولى منه بها؟ لقد اثبتنا عدم اهليّة أبي بكر وجميع اصحابه (سوى علي (ع)) لهذا الأمر.

وقد صرّح الامام علي (ع) كراراً ومراراً في كتاب نهج البلاغة بأهليته لهذا الأمر وعدم اهلية غيره: «لقد تقمّصها فلان وهو يعلم انّ محلّي منها محل القطب من الرّحى».

رابعاً: هل تتساوى الشروط التي يجب ان يحرزها امام الجماعة مع الشروط التي يجب ان يحرزها خليفة المسلمين؟ لا شك انّ شروط امامة الصلاة تختلف كثيراً عن شروط زعامة المسلمين وانّ هذا الاختلاف هو بدرجة من الوضوح تغنينا عن الخوض فيه. اذن فالمقارنة بين امام الجماعة وامام المسلمين هي ـ من الأساس ـ مقارنة خاطئة وانّ الاستدلال بهذه الطريقة هو دليل واضح على فقدان الخصم للأدلّة المقنعة وعجزه عن إقامة الدّليل والبرهان.

وفي الختام أودّ ان اذكّر انّ البعض أرادوا ان يثبتوا عدالة أبي بكر استناداً الى هذه الرواية فنقول في جواب هؤلاء:

أولاً: حتى لو فرضنا انّ النبي (ص) أقرّ بعدالة أبي بكر فانّ ذلك لا يدلّ على أهليّته للخلافة لأنّه ليس من حقّ كلّ عادل ان يكون خليفة.
ثانياً: ان الشيعة لا يقرّون بصحة صلاة ابي بكر وانّ السنة لا يوجبون العدالة لإمام الجماعة أي انّ العدالة ليست شرطاً من شروط امام الجماعة عند اهل السنة، اذن ما هو الداعي للبحث والجدل مع الاخوة أهل السنة في الاقرار بصلاة أبي بكر وانكارها.

س: ان اسلوبكم في نقد الشعائر المذهبية الدارجة والدعاة اليها هو اسلوب لاذع، أليس من الأفضل أن تتخذوا طريقة المحققين المعتدلين وتكتفوا بالتحليل والنقد وتكفّوا عن النكت اللاذعة التي لا تطابق الحق أحياناً؟

ج: لقد اشرتم الى موضوعين مختلفين في هذا السؤال: الأول هو ان اسلوبي في نقد الشعائر الدارجة والدعاة لها هو اسلوب لاذع، والآخر هو انّ نكتي اللاذعة لا تطابق الحق أحياناً.

(والظاهر من كلامكم هو ان نكتي اللاذعة تطابق الحق «غالباً» أو «بشكل عام» أو أحياناً على الأقلّ).

أما بالنسبة للشق الثاني من السؤال أي «النكت اللاذعة التي لا تطابق الحق» فانها ليست قابلة للدفاع لأنّ الشخص الذي يقوم بهذا العمل اما ان يكون عالماً بقيامه بعمل لا يطابق الحق واما ان يكون جاهلاً بذلك، اي اما ان يكون مغرضاً أو جاهلاً وأعوذ بالله من أن أكون من المغرضين أو الجاهلين والويل كل الويل لي ان لم اميّز الحق عن الباطل أو أن تكون حياتي عرضة للأغراض والأمراض بعد ان قضيتها ـ كما أظن ـ بالبحث عن الحق والحقيقة. إلّا انكم لم تشيروا على الأقل الى نموذج واحد طعنته ـ بغير حق بنكتة لاذعة، لكي أعرف ما هو ذنبي وبماذا عليّ أن أقرّ وعن أي شيء عليّ ان ادافع؟ انه اتهام لم تذكروا فيه مورد التهمة. اذن هل سيكون الحديث عن هذه التهمة نافعاً؟

أما الشق الأوّل من السؤال فهو استفسار عن سبب استخدامي لهذا الاسلوب اللاذع في نقد العادات والتقاليد الباطلة ـ وهو انتقاد صحيح ـ فعليّ ان أتساءل: ألا يبرّر «بطلان» هذه العادات والتقاليد اسلوبي الحادّ واللاذع في النقد؟

بالطبع انني اعلم انّ هذه الطريقة لا تتناسب مع كل زمان ومكان وهناك مجالات علميّة كثيرة يجب على الباحث ان يتّبع فيها طريقة علميّة محضة بعيداً عن الضجة والتطرّف والعواطف.

فلو كنت فيلسوفاً مثلاً وتباحثت مع فيلسوف آخر في موضوع تقدم الوجود على الماهية أو موضوع حدوث العالم وقدمه، ولو كنت صوفياً يبدي رأياً جديداً في موضوع النزاع القديم بين المشائين والاشراقيين في تعارض العقل والعشق، ولو كنت فقيهاً وحاولت مثلاً اصدار فتوى جديدة في عدم حرمة الخمور، ولو كنت اديباً وكتبت في موضوع وجوه الافتراق بين الفنّ والأدب، ولو كنت شاعراً وتنقدت الشعر القديم وطريقة شعرائنا المعاصرين (القدماء) الذين لا يدركون عصرهم ومجتمعهم، ولو كنت مفسّراً للقرآن وأشكلت على أكثر المفسرين من القريقين، ولو كنت واعظاً وصرحت ان الموعظة يجب ان تتبع اليوم الطريقة العلمية في التعليم والتربية وعلى الواعظ أن يكون ملمّاً بعلم النفس والاجتماع والأدب وفنّ الاعلام والعلاقات الاجتماعية وعليه ان يترك الطريقة القديمة المملّة في الوعظ، ولو كنت مهندساً معماراً أو مؤرخاً أو غير ذلك. بطبيعة الحال كان علي ان اتخذ الطريقة العلميّة في التحقيق كي لا يحترق القدر والعصاء ولا تمسّ كلماتي احداً بسوء فيعظم قدري بين العلماء!

ولكن ما عليّ أن أفعل! فأنا لست محققاً علمياً بل كائن ضعيف

يرهقني ثقل التعذيب والشهاد: لمئات السنين من التاريخ كحبة قمح صغيرة بين مطرقة الاستعمار الخارجي وسندان الاستحمار الداخلي القاسيين. فكيف يا أخي تريد مني ان اكون محققاً فاضلاً محترماً مؤدباً موقراً؟!

عندما ذهبت الى مصر لمشاهدة الاهرام لم أذهب الى قبور الفراعنة ـ كما يفعل المحققون المحترمون ـ بل ذهبت الى قبور الآلاف من العبيد الأفاوقة الذين ماتوا تحت السياط وهم ينقلون الصخور العظيمة من اسوان الى القاهرة فكان يموت منهم يومياً العشرات والمئات ويدفنون في هذه القبور الجماعية. عندما جلست على قبور هؤلاء الأخوة شعرت انني اتحدث معهم. فكنت اتلو على قبورهم مأساة خمسة آلاف عام من الجوع والظلم والخوف والمشقة وكانوا ينحبون معي مأساة حياتهم السوداء...

قلت لهم: اخوتي مضى خمسة آلاف عام وانتم نائمون في هذه القبور إلّا انّي كنت طوال هذه المدة اعيش هذا التاريخ الأسود مع الفراعنة والقياصرة والأكاسرة وامثال قارون وبلعم بن باعورا.. واليوم لجأت الى بيت فاطمة المهجور هرباً من اولئك الطواغيت وتلك القصور والمعابد والخزائن فوضعت رأسي على جدار هذا البيت ولم يخدعني منذ الف واربعمئة أي كافر ومسلم فانّ في هذا البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين وزينب..

إلّا أني أرى قوماً جعلوا من هذا البيت حانوتاً لمصالحهم وجعلوا من هذه الكعبة ـ القبلة التي حرّرتني قبل خمسة آلاف عام من الرّق والجمود والجهل ـ قاعدة للجمود والجهل. ثمّ تأتي انت وتطلب منّي انتهج الطريقة العلمية الهادئة اللطيفة الناعمة المترفة في تحقيقي؟!

ان منطق انسان شيعي مثلي هو ليس منطق ابن سينا والغزالي والمحقق والمستشرق بل هو منطق أبي ذر الذي شجّ بعظم البعير رأس كعب الأحبار في محضر عثمان! انّ النزاع يا أخي ليس على «نظرية علمية» بل على ميراث عبد الرحمن بن عوف.

س: لقد اشدتم في الكثير من كتبكم من قبيل: «معرفة الاسلام» و«فاطمة هي فاطمة» و«التشيع العلوي» و... بدور علماء الشيعة (الروحانيين) واشرتم الى فلسفة وجودهم والخدمات التي قدّموها إلّا انّكم انتقدتم في الوقت ذاته وفي مواضع اخرى النظام السائد في المجتمع العلمائي وتحدثتم في هذا المجال بشكل مطلق ولم تستثنوا بعض العلماء والمدرسين والفضلاء والطلاب من انتقاداتكم الحادة. لماذا هذا التناقض؟ الاشادة والمدح احياناً واللّوم والذّم احياناً اخرى؟

ج: يجب ان نتّفق على معنى كلمة «الروحانية» ونعيّن مصاديقها في البداية ثمّ نتطرق الى الآراء والانتقادات الواردة في هذا المجال. اني اعتقد ان كلمة «الروحانية» ليست مصطلحاً اسلامياً ولا شيعياً بل هو مصطلح مسيحي دخل اخيراً في مفرداتنا اللغوية. فلم ترد في

نصوصنا الاسلامية كلمة بهذا المعنى بل ان المصطلحين اللذين يستخدمهما المسلمون بدل «روحاني» و«جسماني» هما «العالم» و«المتعلم». اذن علينا ان نستخدم كلمة «العالم الاسلامي» بدلاً من كلمة «الروحاني». من هو العالم الاسلامي؟

انه ـ حسب رأيي ـ الشخص الذي يعرف القرآن في الدرجة الأولى ويعرف النبيّ (السيرة والحديث والسنّة) في الدرجة الثانية ويعرف أهل البيت وسيرة الائمة والصحابة وشخصيتهم في الدرجة الثالثة ويعرف الثقافة الاسلامية في الدرجة الرابعة ويكون متخصصاً في احدى العلوم الاسلاميّة: الفلسفة الاسلامية، تاريخ الاسلام، علم الحديث، علم الرجال، علم الاصول، الفقه وغيرها في الدرجة الخامسة (وان كان الترتيب الحاليّ شيئاً آخر). اما الشخصيات «الروحانية» المحروسة المدلّلة المقدّسة التي تشعّ نوراً لكنها لا نعرف شيئاً ولا نحيط علماً بايّ شيء، فاني عاجز عن معرفتها ولا جدوى من أن ألوم نفسي على ذلك. فما يوسعني ان افعل؟ انّ الله تعالى لم يعطني هذه القابلية لأفهم فائدة هؤلاء وإن كان عوام الناس يقدّرونهم ويقدسونهم اكثر من اولئك الذين ذكرتهم في مستهلّ حديثي. انني اسمّي هذا النوع من رجال الدين «الروحانيين» (لأنّه لا يوجد اسم محترم آخر ليس له دلالة على ايّ معنى). أرجو ان لا تلوموني على هذا الرأي لأنّني ضغطت على نفسي وحاولت كثيراً ان اعتقد بهذه الشخصيات المحترمة

لكنّي لم انجح في ذلك فيأست من نفسي، اما بالنسبة لعلماء الاسلام فأريد ان ادّعي وهناك العشرات من الدلائل والقرائن على اثبات هذا الادّعاء بأني فخور بكوني دافعت بجدّ وبشكل فكري وعلميّ مؤثّر وأكثر من أي شخص آخر من العلماء والخطباء والكتّاب المعاصرين عن هذه الجماعة العزيزة التي تعدّ أملاً كبيراً ورأسمالاً عزيزاً لنا . وأمّا الأدلّة على ذلك :

١ ـ عندما تحدثت في سلسلة دروس «معرفة الاسلام» عن حذف الوسيط في ارتباط الانسان مع ربّه في الاسلام، سألني بعض الطّلبة عن دور علماء الدين في المجتمعات الاسلامية فقلت ان علينا ان نميّز بين الأمر الرسمي القانوني والضرورة التي تقتضيها الحاجة، ثم أجبت على هذا السؤال قائلاً: ان الفاصل الزمني الذي فصل المسلمين عن صدر الاسلام والتطور والتعقيد في العلوم والمعارف وخصوصاً علم الفقه والتشّعب في الفرق والمذاهب الاسلامية واختلاط عقائد المسلمين مع عقائد وتقاليد الشعوب الاخرى وتعدّد الفروع والحقول العلمية في المجتمعات الاسلامية المتطورة، جعل من الضروري ان يكرّس البعض انفسهم للدراسة والتحقيق في شتّى مجالات العلوم والمعارف الاسلامية لكي يتسنّى للآخرين (الذين شغلتهم مجالات العلم والحياة الاخرى عن درك الحقائق والحصول عليها من مصدرها الرئيسي أي النبي والائمة (ع) أو لم يكن لهم الكثير من الوقت للتفرغ

لتعلم الدين كما كان يفعل ذلك المسلمون الأوائل في صدر الاسلام) ان يتعلّموا العقائد وأحكام الدين من هؤلاء المتخصصين، وقلت ان هذا الأمر هو ضرورة اجتماعية وعلميّة ثم قارنت بين المنصب الرسمي والمنصب الضروري وشبّهتهما بالحرّاس الذين يختارهم الناس في بعض الحارات لحراسة منازلهم شعوراً منهم بضرورة ذلك والحراس الذين تعيّنهم الدولة وتعطيهم صلاحيّات خاصة بزيّ خاص ودرجة رسميّة معيّنة . وهذا هو الفرق بين العالم الاسلامي والقس المسيحي.

٢ ـ ذكرت في كتاب «الانتظار» نقلاً عن (ونسان مونته) ان طالب العلوم الدينية هو بروليتاري فكري، وقلت انّ هؤلاء المجاهدين السائرين في درب العلم والايمان الذين لا تتجاوز نفقاتهم عن نفقة طير امريكي كرّسوا حياتهم وشبابهم لتعلم الدين في الوقت الذي يختار فيه طلبة الجامعات حقولهم الدراسية على اساس الدّخل المستقبليّ المتوقّع لهذا القسم الدراسي أو ذاك .

انّ طالب العلوم الدينيّة يقضي عمره الدراسي بزهد لا يكاد يصدّق ولا يوجد اي ضمان لتأمين حياته بعد اتمام الدراسة والتخرّج ولا يشمله اي امتياز من الامتيازات الطلابيّة العاديّة الا انّه وبالرغم من كلّ ذلك ينتهج هذا الطريق بصبر وايمان ووفاء لا يوصف .

٣ ـ قلت في احدى المحاضرات الطلابية العامّة في حسينية الارشاد مخاطباً الطلبة الجامعيين: ان أملي بطلبة العلوم الدينية هو أكثر

منكم بالنسبة لمستقبل هذه النهضة الفكرية ونوعية الناس واحياء روح الاسلام الأصيل وبعث روح الرفض والعدالة التي تتجلّى في التشيّع العلوي لأنّ حياتكم الفكرية قصيرة جداً ولا تتجاوز الأربع أو السبع سنوات، بعدها سيشغلكم روتين الحياة وستكونون بشكل لا ارادي في مخالب الطبقة البرجوازية. أما طالب العلوم الدينية فانّ عمر مسؤوليته الاجتماعية يساوي كل حياته فهو يشعر بالمسؤولية حتى الموت تجاه عقائد الناس ومصيرهم.

٤ ـ لقد أثبتُّ في دراستي للجذور الطبقية في «الحوزة» و«الجامعة» انّ أكثر من ثمانين بالمئة من الجامعيين (الطلبة، الموظفين والاساتذة) ينتسبون الى الطبقة البرجوازية الساكنة في المدن وخمسة بالمئة منهم ينتسبون الى طبقة الاقطاعيين القرويين. اما الحوزيّون (العلماء المراجع، المدرسون والطلبة) فينتمي خمسة بالمئة منهم فقط الى الطبقة المتوسطة الساكنة في المدينة (البرجوازية الصغيرة والكسبة الصغار) وينتسب اكثر من تسعين بالمئة منهم الى الجماهير القروية المحرومة وأبناء الفلاحين والملالي القرويين. ويتضمن هذا التحليل نتائج اجتماعية وفق تقييم اجتماعي مفصل وشامل.

٥ ـ لقد أحصيت في رسالة تحقيقية كتبتها لوزارة العلوم وفي مقالة «الصحراء = كوير» أيضاً الموارد التالية لرجحان الطريقة التعليمية التربوية الحوزوية على الطرق الأكاديمية:

١) اختيار الاختصاص العلمي على اساس القيمة الفكرية لا الدخل الاقتصادي.

٢) الشعور بالمسؤولية الاجتماعية التي تتناسب مع الاختصاص الدراسي منذ اللحظة الأُولى من الدراسة.

٣) اختيار الأستاذ بحرية تامة على اساس لياقته وقيمته العلمية.

٤) ضرورة احتفاظ الاستاذ بوجهته العلمية والاخلاقية.

٥) وجود علاقة المريد والمراد بين التلميذ والاستاذ.

٦) الطريقة التعليمية المدرجة.

٧) رواج «المباحثة» بين الطلبة بعد كل درس.

٨) حرية الحضور في الصفوف وعدم التقيد بالمظاهر والتشكيلات المعقدة والادارية الجافة التي تشكل عائقاً هامّاً في طريق كسب العلم.

٩) مجانية التعليم.

١٠) امكانية مواصلة الدراسة لعموم الناس بجميع اعمارهم وطبقاتهم وظروفهم.

١١) اعطاء المنح الدراسية وتأمين السكن والامكانيات الدراسية لكلّ طالب.

١٢) اندماج الاخلاق مع العلم بشكل طبيعي.

١٣) الاتصال الدائمي بالجماهير.

١٤) قبول مسؤولية القيادة الفكرية والهداية الاجتماعية للناس.

١٥) العلاقة الوحيدة بين الايديولوجية والعلم.

١٦) وجود «ثقافة مشتركة عامة» و«جهة واحدة» و«تنسيق كامل» بين الفروع والاقسام العلمية المختلفة رغم تعددها ووجود التخصص فيها.

١٧) الاتصال بالماضي التاريخي والثقافي والعقائدي (الشيء الذي لا نراه في الثقافة الجديدة).

١٨) عدم وجود اي شكل او قالب ظاهري في تقييم الدرجة العلمية للطلبة والاساتذة وتفويض هذا الامر للناس والاعتماد على كفاءة الشخص الذاتية وقيمته الفكرية وكماله العلمي بدلاً من دوائر التوظيف وقوانين الترفيع التلقائي (التي شبّهتها في كتاب الصحراء[1] بأجاص بُخارى الذي ينقع في الماء، فيصبح مساعد المدرس بعد اربع سنوات وبشكل اوتوماتيكي مدرساً ويصبح المدرّس الجامعي بعد خمس سنوات استاذاً!..) .

٦ - ذكرت في كتاب «التشيع العلوي والتشيع الصفوي» ان علماء الشيعة رفعوا دائماً وعلى مدى ألف عام من التاريخ الاسلامي رايات

(١) كوير .

الثورة على الظلم وكانوا من المدافعين عن الحركات المطالبة بالعدالة والحرية الاجتماعية وحاكمية العلم والتقوى، وقد حرّض علماء الشيعة الناس دائماً على مواجهة انظمة الخلافة الاستبدادية الارستقراطية والحكومات التابعة لها وكانوا دائماً في طليعة الحركات الجماهيرية الثورية، وخير شاهد على ذلك حركة المعدومين[1] في القرن الثامن الهجري.

٧ - ذكرت في كتاب «تاريخ الأديان» انّ علماء الشيعة هم أنزه فئة أو طبقة روحانية بين جميع الأديان والمذاهب في الماضي والحاضر .

٨ - انّ التقوى والورع والاتصال الدائم بالجماهير والوقوف بوجه القوى الحاكمة - او الابتعاد عنها على الاقل - هي من الخصائص الطبيعيّة التي يمتاز بها علماء الشيعة على رجال الدين في المذاهب والأديان الأُخرى لأنهم يعتمدون من الناحية الاقتصادية والاجتماعية على الجماهير لا على الحكومات.

٩ - ذكرت في كتاب «الانتظار ومذهب الرفض» انّ هناك اشخاصاً ينتحلون الزيّ العلمائي بتخطيط وتأمر القوى المعادية للناس مستغلّين بذلك عصر الغيبة وأصل نيابة الامام (ع). انّ هؤلاء

(١) سربداران.

الانتحاليين قد يحصلون بمساعدة تلك الأيادي الآثمة السرية والعابثة على مقام وحاشي أو وجهة مصطنعة أو مرجعية كاذبة بغية الإساءة الى الوجوه العلمائية الحقة والتقليل من شأنها ودورها المحوري في المجتمع.

١٠ ـ نص الحديث الذي تحدثت به في بداية الدرس السابع عشر من سلسلة دروس «معرفة الاسلام» رداً على نقد غير لائق أورده السيد (مكارم) في مجلة «في رسالة الاسلام»[1]. في البداية لم أكن ارغب في الرد إلّا انّي شعرت ان الطلبة الذين يعرفون دروسي وآرائي جيداً استغربوا كثيراً من الاسلوب والاخلاق وادب الكتابة في هذه المجلة الدينية المنسوبة الى علماء الدين فرأيت من الضروري أن ادافع عن الحوزة العلمية قبل أن أدافع عن نفسي فقلت آنذاك:

أولاً: انّ طريقة التفكير واسلوب الكلام في تلك المقالة يخصّ صاحب المقال وليس له أي علاقة بعلماء الدين (وهذا ما أقوله دائماً عندما أواجه أي تهمة أو شتيمة من الملتبسين بالزيّ العلمائي المقدس لانّي أعرف جيداً أثرها السلبي بين المفكرين لذا أسعى دائماً الى تبرئة علماء الدين من هذا الانتساب).

ثانياً: انّ اي معترك ومعمعة في هذا المجال توجب صرف

(١) در مكتب اسلام.

الأذهان عن الحقائق، لذا انّ واجبنا هنا هو الصّمت والصبر تجاه هذه الشتائم والتهم. من هنا اضطررت آنذاك الى التذكير ببعض الأمور، وأودّ ان يتلقّى الجميع هذه التذكرة كردّ أودّ به على كل تهجّم من هذا القبيل وكرأيٍ خاص بي تجاه علماء الدين والحوزة العلمية الدينية. امّا نص المقدمة فهو كما يلي:

«...المسألة الثانية التي تعتبر مسألة مهمة للغاية هي انّ البعض يحاول بشتى الاساليب ان يصوّرنا للآخرين بأننا فئة او اشخاص مناوئون لعلماء الدين فيهجّمون علينا تحت هذا الغطاء. والغاية من ذلك هي اثارتنا للتهجّم على العلماء دفاعاً عن انفسنا لكي يستغلّوا هذا التهجّم ويشيعوا بين الناس ان هنالك فئة او جماعة من المفكرين تخالف علماء الدين. هذه هي غايتهم، وعلينا ان نصبر تجاه هذه الاستفزازات والتهم الواهية ونضع الأمر امام الآخرين ليحكموا عليه لكي نحبط هذه المؤامرة القذرة. من هنا اوبد ان اقول انّ شخصاً مثلي (يتحدث بهذا الكلام ويحمل هذه الآراء ويفكّر بهذه الطريقة) قد لا يتفق مع عالم ديني في بعض المسائل وينتقد طريقته في التبليغ الديني او طريقته في تحليل بعض القضايا ويختلف معه في الكثير من الامور ـ وان كان ذلك العالم عالماً دينياً حقيقياً ـ الا ان هذا الخلاف هو خلاف الأب والابن في الاسرة الواحدة. ولهذا اسعى ان لا أجرّ هذا الخلاف العائلي بين جيلنا والجيل السالف الى الأزقة والأسواق لكي لا يستغلّ

العدو ـ عدوّ هذا الجيل والجيل السالف ـ هذا الخلاف لصالح اغراضه وأطماعه.

١١ ـ ذكرت في سلسلة دروس «معرفة الاسلام ـ حسينية الارشاد» انّ رابطة الطلبة الايرانيين المقيمين في فرنسا ـ التي كانت تديرها بعض الأيدي آنذاك ـ نظّمت ذات مرة اجتماعاً حضره السيد جهانگير تفضلي. وقد تحدّث في هذا الاجتماع السيد وزم أرا وتهجّم خلال حديثه على علماء الدين بألفاظ من هذا القبيل: «في ايران، عندما امرّ من امام مسجد أو أسمع صوت واعظ يتحدّث تتدهور حالتي الصحية وبسنا، مزاجي، اني اكره هذا الدين وتشمئز نفسي من رجاله، انّ هؤلاء الملالي هم السبب في شقاء البلاد وبؤسها وهم القاعدة الرئيسية التي يرتكز عليها الاستعمار...».

أردت ان اتحدّث الا انّهم منعوني من الحديث. انتظرت وصول الدّور لي لأتحدث لكنّهم لم يراعوا الدور، فما كان بوسعي إلّا أن أفرض نفسي على المجلس برفع صوتي فقلت: اني استغرب من حديث السيد... لانّنا لو راجعنا اليوم القبائل الافريقيّة البدوية لرأينا جميع افرادها يعرفون هذا المبدأ الاخلاقي الحضاري المسلّم الذي يفرض علينا احترام عقائد الآخرين وآرائهم. اني استغرب من كونكم تعيشون في عاصمة الحضارة وحريّة الرأي واحترام عقائد الآخرين ولم تتأثروا بهذه الحضارة اي تأثير؟!

انّ الدعوة للحضور في هذا الاجتماع هي دعوة عامّة، اذن انتم تحتملون حضور اشخاص مثلي لم يتثقفوا بعد الى درجة تجعلهم يتحمّلون كلامكم، فكيف تسمحون لأنفسكم بالاساءة الى عقائد اشخاص مثلي؟ ثانياً انّ الدين ليس قطعة من الحلوى كي تتحدثوا عنه كما تتحدّث الوحمى المغتاج الى زوجها فما معنى قولكم «نحن لا نحب الدين»؟ ثالثاً: انّكم تقولون ان الملالي كانوا قاعدة للاستعمار، لكنّ هذا الكلام هو مسألة واقعة وتاريخ وليست مسألة ذوق كي يتسنى لكم التحدث عنها كيفما تشاؤون، بل عليكم أن تأتوا بما يبرهن على ذلك. فحسب ما تفيد معلوماتي ان جميع الاتفاقيات الاستعمارية الموجودة وقعت على يد الدكاترة والمهندسين واصحاب الشهادات العليا الذين اكملوا دراساتهم في الجامعات الغربيّة. فان استطعتم ان تأتوني بتوقيع احد هؤلاء الملالي الذين تخرجوا في حوزة النجف لاتفقت معكم في الكلام وشاطرتكم هذه المقولة، إلّا اني أرى العكس هو الصحيح لأنّنا نرى وجوهاً لبعض هؤلاء الملالي أو على الأقل وجهاً واحداً لهم في طليعة كل نهضة مناوئة للاستعمار وفي مقدّمة كل حركة ثورية تقدمية تطالب بالاستقلال ابتداءً بسيد جمال والميرزا حسن الشيرازي وحتى رجال ثورة الدستور و...

١٢ ـ لقد دافعت بكل وجودي عن علماء الدين ودورهم الاجتماعي خلال فترة تواجدي في أوربا (من عام ١٩٥٩ حتى عام

١٩٦٤) وتصدّيت لجميع التهم الموجّهة لهم وكان هذا متزامناً مع اتفاق أغلب الفئات المتنازعة على النيل من منزلتهم ودورهم الاجتماعي. فقد دافعت عن علماء الدين في الأوساط الفكرية الاوروبية وفي أوساط الطلبة الايرانيين بشكل مؤثر مستخدماً بذلك شتى الأساليب والطرق كالمحاضرات والتقارير والدراسات العلمية في علم الاجتماع الديني، وهذه هي حقيقة لم أتحدث عنها أبداً لأنّ الخوض فيها يستبطن نوعاً من العجب ومدح الذات وما ذكرتها هنا الا اثباتاً لتأييدي لهذه الجبهة ووقوفي بجانبها وهذا ما يعرفه كلّ مطّلع على الأوضاع في خارج البلد.

هذا هو رأيي في علماء الدين وذلك هو رأيي في «الروحانيين» (بالمعنى الآخر)!

والآن علينا أن نتساءل عن مصدر هذه الاشاعة التي تتهمني بمخالفة العلماء والحوزة العلمية وللأجابة على هذا السؤال عليّ أن أقول:

أوّلاً: انّ الفاسطين يخططون لبذر التفرقة والنفاق والتشاؤم بين المثقف والمتديّن، والحوزة والجامعة، والطالب الجامعي والطالب الحوزوي، والخواص والعوام، وانّ الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يبطل هذه الخطة هو عمل «جماعة من المثقفين المتدينيين» على بناء جسر يسدّ هذه الفجوة الكبيرة.

فاليوم يجلس الطلبة الجامعيون والحوزويون جنباً الى جنب في حسينية الارشاد ويرجع المثقفون ــ ولأولّ مرة ــ الى علماء الدين ويقفون الى جانب الجماهير وهذا أمر لا يروق للفاسطين، لذا تراهم يخططون دائماً لإثارة الضجة وزرع الفتنة بين الفريقين بشتى الوسائل والأساليب كالزور والتزوير والشتم والافتراء والتهجم والاشاعة وحتى الكلام الفاحش والطعن بالأعراض.

ثانياً: عندما قرّروا التهجم عليّ وعلى حسينية الارشاد رفعوا شعاراً فجاً وغير مدروس في بادىء الأمر. فالقميص الذي رفعوه ليوحوا للناس انه قميص علي سرعان ما ظهرت حقيقة كونه قميصاً لعثمان فقد اختاروا في البداية ومن بين التهم الموجودة كالانتساب الى النصرانية واليهودية والبابيّة والشيوعية والوجودية والشيخية والصوفية وغيرها. اختاروا أكثر هذه التهم تأثيراً في عواطف الشيعة في ايران فاتّهموني بالانتماء الى اسوء المذاهب السنيّة أي المذهب الوهابيء وكان هذا الاختيار صائباً من هذه الناحية إلّا انّ الشيء الوحيد الذي لم يكن في حسبانهم هو عدم التصاق هذه التهمة رغم استخدام الأطنان من صمغ الدجل والسفسطة.

عتموا بلاغاتهم على جميع الشعب والفروع وشرع عملاؤهم باشاعة هذه التهمة، ولكن ولحسن الحظ وبمساعدة حسينية الارشاد واهتمام جماعة من الزملاء تمّ استنساخ وطبع الدروس والمحاضرات

وحتى اشرطة الكاسيت التي سجّلت عليها محاضراتي، وقام الطلبة في كل المدن والكليات باستنساخ هذه التناجات، وتوزيعها على قدر المستطاع شعوراً منهم بالمسؤولية تجاه ذلك وهكذا عرضت افكاري (عن التشيع واهل البيت والائمة ولا سيما علي و فاطمة والحسين والامام الموعود (ع) على اصحاب الفكر والقلم وخاب أمل الأعداء وأصبح طرح هذه التهمة في أقصى المساجد والحسينيات وحتى في مجالس العزاء التي تعدّها النساء في البيوت امراً لا يجلب لصاحبه إلاّ الخزي والعار أو لطمة على الأسنان. لكنّهم لم يكتفوا بهذه التهمة فاستبدلوها بتهمة أُخرى ووقعوا هذه المرّة شعار مخالفتنا لعلماء الدين. فالمهمّ هو استفزاز العلماء وتحريكهم وتحريضهم ضدّنا سواءاً بتهمة المخالفة للتشيع أو المخالفة لعلماء الدين!

بيد أنهم أخطأوا في حساباتهم مرة اخرى فكيف يمكن للتهمة التي لم تؤثر في عوام الناس ان تؤثر في علمائنا المفكرين الذين يراعون في حكمهم على الأمور، المعايير العلمية والشروط الفقهية والعقل والمنطق؟

وهكذا باءت خطتهم الثانية بالفشل ايضاً ليشرعوا بالبحث عن قميص عثمان آخر، الا انّ علماءنا الاعلام ووعّاظنا الأفاضل وطلبتنا الواعين انتبهوا ولحسن الحظ وخصوصاً بعد اشاعة التهمة الثانية الى فلسفة هذه المؤامرة وغرض الأعداء منها. ونحن ايضاً شعرنا بخطورة

الموقف اكثر من ذي قبل فأخذنا نخطو خطواتنا بحيطة وحذر وكان هذا الشعور المشترك هو السبب في تقاربنا والتعرف على بعضنا فتعلّمنا من خلال هذه المعرفة دروساً كثيرة، فما أكثر العلماء والفضلاء والخطباء والمتدينين الذين كانوا يشككون بإخلاصنا وصحة ديننا او طريقتنا في التفكير والعمل متأثرين بالدعايات المشبوهة والأجواء السامة وحملات التزوير والاتهام وما اكثر المفكرين والمثقفين الذين كانت لهم مشاعر سلبيّة تجاه علماء الدين تحت تأثير ابواق الدعاية المشبوهة. لكنّنا نرى اليوم مشاهد مثيرة ومفعمة بالعواطف والاخلاص من الانتباه الى انفسنا والايمان ببعضنا وازاحة الغبار والصدأ عن قلوبنا وتوطيد أواصر اخوّتنا.

س: انّ طريقتكم في الكتابة والتعبير تسبّب الغموض والابهام للبعض فيما يستغلّها البعض الآخر ممن يحمل افكاراً خاصة لصالح ترويج افكاره كما يستغلّ طريقتكم هذه بعض المغرضين الذين يتربصون الفرص دائماً كي يشوّشوا أذهان العوام من الناس بل الخواص منهم ممن لم يتعوّدوا على المراجعة والتحقيق في المسائل التي يسمعونها. فهل لكم ان تبدّلوا طريقة تعبيركم هذه بشكل تسلبون فيه امكانيّة الإساءة في تفسيرها وتأويلها؟

ج: أعتقد انّ من المستحيل ان يبلغ خطيب أو كاتب ـ مهما كانت مهارته وثقافته وادبه واحاطته بعلم اللغة ـ هذه الذروة من الأدب بأن لا

يكون في كلامه أي ابهام لأي قارئ، أو مستمع مهما كان مستواه أو نوع تفكيره وثقافته ويسدّ الطريق على أي مغرض كي لا يحرّف عبارة من عباراته. ففي الوقت الذي نرى فيه القرآن وهو كلام الله تعالى يؤوّل لمقاصد وأغراض عديدة ويختلف العلماء المفكرون البارزون في فهمه وتأويله ويستنبط كلّ فريق وفئة وطائفة من كل آية من آياته ما لا يستنبطه الآخرون، كيف يمكن لكاتب او خطيب عادي ان يتحدث او يكتب بطريقة لا يمكن تأويلها وتحريفها؟

من هنا اريد ان اقول انه كلما ازدادت الفكرة عظمة وكلما ازدادت المعاني ظرافة وكلما ازدادت المشاعر سمّواً وكلما ازداد الكلام جمالاً وبداعة، سيزداد معه ايضاً احتمال سوء الفهم والابهام والاتهام، والاختلاف في درك المفاهيم، والتناقض في الاستنباط وانواع الأغراض والأمراض.

من حوار احد الطلبة الجامعيين مع الدكتور شريعتي

الطالب : لقد انعكس تصويركم في الاذهان كتصوير «مفكّر ديني» فهل انتم راضون عن هذا التصوير؟

شريعتي : لو عرّفكم أحد بكلمتين مجهولتين، فهل سيرضيكم هذا التعريف؟!

الطالب : ان معنى هاتين الكلمتين بسيط وواضح بالنسبة لنا. فالمفكّر: هو الشخص الواعي الذي يخوض في مجال الفكر، والدّيني: هو الذي يؤمن بما وراء الطبيعة كالايمان بالله مثلاً...

شريعتي : لو امتهن احد عملاً فكرياً (كالمحاسبة مثلاً) لكنه لم يكن واعياً فهل سيكون مفكّراً؟ ولو كان واعياً ولم يحترف عملاً فكرياً فهل سيكون «غير مفكّر»؟ وان كان يؤمن بالله ولا يؤمن بما وراء الطبيعة فهل سيكون «غير ديني» وان كان يؤمن بما وراء الطبيعة ولا يؤمن بالله (مثل بوذا وهيجل) فهل سيكون دينياً؟

الطالب : يبدو انّ المسألة ازدادت صعوبة...

شريعتي : كما تلاحظون ان المسألة ليست بهذه البساطة. فغالباً ما يحصل سوء الفهم بسبب مرورنا على المسائل مرّ الكرام. فاننا

نتزحلق على الحقائق وكأننا نلعب في سيرنا المنطقي في العملية الفكرية. فالكلمات التي نستخدمها لاستيعاب مقاصدنا ونقل ما في اذهاننا، غالباً ما تكون مبهمة لنا ولمخاطبينا، أو غير متفق عليها من قبل طرفي الحوار على الاقل. لكننا على الرغم من ذلك نرى ان الحوار يجري بشكل طبيعي بدون ان يشعر اي طرف من الاطراف بعدم الاتفاق على الكلمات التي يستخدمونها، والأغرب من ذلك هو اننا نرى في بعض الأحيان ان المفاوضات والمباحثات تجري على ما يرام وتسفر عن نتائج متفق عليها في ظاهر الأمر ولكننا لو امعنّا النظر في هذا الاتفاق لرأينا ان الجانبين قد اتفقا على كلام لم يتفقّوا على معناه، والسبب في ذلك هو ان جانبي الحوار لم يقفا وقوفاً كاملاً على معنى الكلمات الاساسية التي تبادلوها في حوارهم بل اكتفيا بالمعنى الاجمالي لتلك الكلمات. هاتان الكلمتان (المفكر والديني) هي من هذا النوع من الكلمات.

الطالب: ألا تعتقدون انكم انتقلتم الى مبحث الألفاظ ؟

شريعتي: بلى لأن الألفاظ هي الأدوات الوحيدة لبيان الافكار وقبل كل شيء، علينا ان نتأكد من دقة وصحة أدوات عملنا .

الطالب: على اي حال، ماذا تعني هاتان الكلمتان (المفكر الديني) بالنسبة لكم؟

شريعتي: اني اعتقد ان الدين هو بمعنى «المعرفة بالذات =

consience) خلافاً لما نعنيه «الفلسفة» أو «العلوم» أو «الصناعة» التي تعتبر نوعاً من العلم (science). والمفكر هو الشخص الذي يعي الزمان والمجتمع والتقدير التاريخي والعلاقات الاجتماعية والمواجهات والجهات والمصير الاجتماعي الخاصّ به، وبعبارة أوجز: المفكر هو الشخص الذي يعي «الوضع» او «الحيثيّة» الاجتماعية الخاصة به (situation social)[١] وهي التي يسمّيها الاسلام «الفطرة» وهي التي يقصدها افلاطون عندما يعرّف الانسان بانه «حيوان سياسيّ»[٢].

نعم، بهذا المعنى انا راض عن عبارة «المفكر الديني» واشكركم عليها! ولكن علي أن أقول اني لست مفكراً دينياً بل اتمنّى واسعى لأكون مفكراً دينياً. فانني ما زلت اسير في بداية هذا الطريق. اقول هذا كي لا يتهموني بالعجب والتغطرس.

(١) لمزيد من الاطلاع يرجى مراجعة كتابي «الطريق الثالث» و«معرفة الذات والاستحمار» للمؤلف.

(٢) لقد ترجم هذا التعريف (الانسان حيوان سياسي) بالمعنى الاعتيادي (الانسان حيوان اجتماعي) في حين تعتبر النحلة حيواناً اجتماعياً ايضاً. ان الحيوان السياسي هو الحيوان الذي يعي المجتمع الذي يعيش فيه ويشعر -بوعي- بالمصير المشترك وأواصر الاشتراك التي تربطه بمجتمعه ولذا عرّفنا الانسان بأنّه «حيوان متعصّب». ولا ننسى انّ السبب الذي جعلنا نرسم للتعصب تصويراً سيئاً في اذهاننا هو اننا نرى غالباً التعصبات السيئة فالتعصّب في حد ذاته ليس أمراً سيئاً. التعصّب -كالتحزب- هو الانتماء الى العصبية بمعنى الجماعة وهو الشعور بالانتماء والارتباط بالجماعة.

الطالب : لقد ذكرتم في العبارة الأولى من مقدمة سلسلة دروس «معرفة الاسلام» ان الدولة العثمانية هي رمز للاقتدار الاسلامي (معرفة الاسلام ص ١٢) في حين يعلم الجميع انّ هذه الدولة هي دولة فاسدة ولا يليقَ بها ان تسمّى دولة اسلامية.

شريعتي : ولهذا السبب كتبت في العبارة الثانية وفي الصفحة نفسها: «ان الهزيمة العثمانية لم تكن هزيمة سياسية وعسكرية فحسب بل كانت بمثابة سقوط الثقافة الاسلامية واستهلاك لقوى المسلمين الروحية والفكرية، فقد جعلت ـ الدولة العثمانية ـ من الدين مادة افيونية تخدّر بها الجماهير وجعلت من الاسلام طلسماً يحافظ على الارستقراطية وقاعدة عريضة يرتكز عليها سلطان العنصر التركي. (معرفة الاسلام ص ١٢)

الطالب : لقد علّق احد السادة اخيراً على عنوان كتابكم «مسؤولية الانتماء الى مذهب التشيع» بانّ اختيار هذا العنوان يكشف عن مدى حقدكم على المذهب الشيعي. فما هو تعليقكم على ذلك؟

شريعتي : انّا لله وانّا إليه راجعون.

الطالب : قد يشعر البعض من خلال مطالعته لكتابي الصحراء (كوير) ودرس (بوذا) الذي نشرتموه ضمن مجموعة دروس «تاريخ الاديان» ومن خلال رواية بعض الطلبة الجامعيين الذين حضروا دروسكم في جامعة مشهد واقرارهم بأنّهم كانوا ينجذبون بشدّة

وينسون أنفسهم اثناء تدريسكم لموضوع «بوذا»... قد يشعر البعض انكم معجبون جداً بالدين البوذي؟

شريعتي : نعم فأنا «سنّي المذهب» «صوفي المشرب» «بوذي ذو نزعة وجوديّة» «شيوعي ذو نزعة دينية» «مغترب ذو نزعة رجعية» «واقعي ذو نزعة خيالية» «شيعي ذو نزعة وهابيّة» وغير ذلك (اللهمّ زد وبارك).

الطالب : لماذا لم تردّوا لحد الآن على الانتقادات والتهجمات التي استهدفت كتبكم ومحاضراتكم؟

شريعتي : لقد شوّشوا اذهان شعبنا دائماً بهذا الضجيج وهذا العراك الفارغ ليعكّروا صفو الماء ويصطادوا فيه، لذا لم احاول افتعال اي ضجّة لأشوّش بها الأذهان أبداً.

بيد انّ بعض الزملاء الذين يؤمنون هم أيضاً بهذا المبدأ ارتأوا اقامة ندوة سؤال وجواب ونشرها على شكل ملزمة لتبيين بعض الحقائق لمن لا يعرف شيئاً عن برامج حسينية الارشاد الدراسيّة والاعلاميّة والتحقيقية وكتبها المطبوعة ولأولئك الذين أحدثت الأشاعات المتواصلة في أذهانهم انطباعاً خاصاً أو شبهةً أو ابهاماً في مسألة ما.

الطالب : اليوم وبعد مرور خمسة أعوام على نشر سلسلة دروس

«معرفة الاسلام» هل لديكم أي نقد على هذا الكتاب؟

شريعتي: لقد كانت لديّ بعض الانتقادات على هذا الكتاب منذ اللحظات الأولى لنشره لأن هذا الكتاب هو مجموعة دروسي الشفهيّة التي أمليتها على الطلبة. وقد طبع هذا الكتاب تحت اشراف الطلبة بدلاً من استنساخه ومن الطبيعي أن لا يكون المعلم راضياً عن دروسه الشفهية لو تمّ تدوينها على شكل كتاب، واليوم وبعد مرور أكثر من خمسة أعوام على نشر هذا الكتاب اذكر كلام استاذي غورويتش الذي خاطبني معترضاً ذات مرة: «أين كنت نائماً في لحد أم ثلاجة؟!».

الطالب: كيف يعرف الناس رأيكم الموجود في كتاب «معرفة الاسلام» في عام ١٩٧٢ وذلك بعد مرور خمسة اعوام على نشره؟

شريعتي: الأمر بسيط جداً ولا يكلف سوى عشرين ريالاً فقط: ملزمة «معرفة الاسلام»، الجزء الأول والثاني (طبعة حسينية الارشاد عام ١٩٧٢).

الطالب: ما هي انتقاداتكم الخاصة في خصوص مضامين ملزمة «معرفة الاسلام» القديمة؟

شريعتي: الف) كان علي أن أطرح موضوع الامامة في مبحث الشورى (ص ٣٨) كي أمنع بذلك امكانية اساءة التصرف أو سوء الفهم. فقد اعربت في هذا الكتاب عن مخالفتي لمبدأ «الشورى» و«البيعة» (لا

بشكل مطلق بل في موضوع الامام علي (ع) وبعد وفاة الرسول (ص) وقد استعرضت براهين عقلية ونقلية كثيرة في اثبات مسألة «الوصاية» بعد النبي ورجحانها على «البيعة» ونقلت قصة الغدير وولاية الامام علي (من ص ٤٢٣ وحتى ص ٤٣٣)، ولكنّ وقوع هذا الفاصل بين هذين العنوانين صار سبباً لأن يتّهمني البعض بالمخالفة لمسألة الوصاية والغدير رغم اني تحدثت عن مسألة الشورى صفحة واحدة وعن مسألة الغدير عشر صفحات.

ب) في الصفحة (٥٢٩) ابديت رأيي في موضوع تعدد الزوجات مستشهداً بإعلان جبهة التحرير الجزائرية وأزمة النساء في المانيا بعد الحرب العالمية وغير ذلك من الشواهد، فتطرقت الى جواز تعدد الزوجات في الاسلام (بالطبع مع الأخذ بنظر الاعتبار الفلسفة الخاصة والظروف والأوضاع الاستثنائية الفردية والاجتماعية) حتى انني وصفت تعدد الزوجات بأنه من الخصائص التي تدلّ على «الواقعية» في الاسلام. غير انّ تعبيري الخاص (في هامش الصفحة ١٢٠) أثار نوعاً من الإبهام رغم تصريحاتي المفصّلة في هذا الصدد. ثانياً لم تترجم هذه الآية بشكل صحيح في الكتاب: **﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة ...﴾**.

ج) انتقادي الثالث هو اني اعتقد ان عناوين اصول العقائد الاسلامية التي نقلتها عن فريد وجدي في القسم الأول من الكتاب

(الـ ١٢٠ صفحة الأولى منه) هي عناوين سطحيّة من حيث المستوى بحيث أشعر الآن انني قادر على استنباط القواعد الاساسية الاسلامية برؤية أدقّ وأعمق وأبدع مما نقلته في كتاب «معرفة الاسلام». لقد شعرت بهذه «السطحية» قبل خمس سنوات أثناء كتابة الكتاب أيضاً (وان لم يكن هذا الشعور بعمق شعوري في هذه اللحظة)، لكنني اردت ان اسند الكتاب الى سند علمي شهير فوقع اختياري على سيرة فريد وجدي، مع كلّ ذلك وكما تلاحظون انني نقلت عن فريد وجدي العناوين فقط بينما جميع التفاصيل هي مني حتى اني طرحت مسائل جديدة وعميقة تحت عناوين فريد وجدي البسيطة وكان من الجدير أن تطرح في عناوين مستقلة.

ثم انّ فريد وجدي لم يأت بالتوحيد كقاعدة اساسية من قواعد الاسلام ولعلّ السبب في ذلك هو اعتقاده بان التوحيد ليس مختصاً بالاسلام، غير اني قلت انّ التوحيد في الاسلام يختلف تماماً عن التوحيد في الاديان السابقة نظراً لعمقه ودائرة شموله ولهذا طرحت التوحيد تحت عنوان مستقل. والاشكال الذي أراه وارداً عليّ هنا هو اني طرحت التوحيد في أبعاده الانسانية والاخلاقية فقط بينما تلاحظون اليوم في سلسلة دروس «معرفة الاسلام» الجديدة (طبعة الارشاد) اني وسّعت دائرة البحث الى أربعة أبعاد:

١ ـ الرؤية الكونية.

٢ ـ فلسفة التاريخ.

٣ ـ علم الاجتماع.

٤ ـ فلسفة الاخلاق.

والاشكال الثاني الذي اعتبره اشكالاً اساسياً هو انني وضعت التوحيد في مستوى أصول الدين الاسلامي الأخرى متّبعاً بذلك الطريقة التقليدية بينما اعتقد اليوم انّ للإسلام أصلاً واحداً لا غير وهو التوحيد، فهو بمنزلة الجذر للشجرة ولا يمكن ان يتعدّد (لأنّ التعدّد هو في الأغصان وليس في الجذر). واما سائر الفروع الاخرى كالنبوة والمعاد والإمامة والعدل والجهاد والحج والاخلاق و... فهي فروع تتفرع من هذا الجذر وتنشأ عن هذا الأساس.

الطالب : لا يخفى على احد انّ والدكم الاستاذ محمد تقي شريعتي مؤسس «مركز نشر الحقائق الاسلامية» هو من روّاد النهضة الفكرية الاسلامية ومن الوجوه البارزة التي قدّمت خدمات علمية جليلة في سبيل تبليغ الدين والمذهب لا يسع المجال لتفصيلها، وهذا هو الحال بالنسبة اليكم ايضاً فالجميع يعرفون ما بذلتموه من جهود عظيمة في سبيل احياء الفكر الديني والدعوة الى الاسلام على اساس الرؤية الكونية للمذهب الشيعي وتأثيركم العميق والسريع على عقول المفكرين والطلبة الجامعيين داخل البلد وخارجه وكلّنا نعلم ايضاً بانّ النشريات والدروس والمحاضرات (العلمية والتبليغية) والمؤتمرات

والمهرجانات وحفلات التأبين والبرامج الخاصة بشهري محرم ورمضان التي اقامتها حسينية الارشاد منذ بداية تأسيسها الى يومنا هذا وخصوصاً في السنتين الماضيتين قد اختص معظمها بالدفاع عن المذهب الشيعي ونشر معارف اهل البيت والتعريف بشخصيتهم (عليهم السلام) غير اننا وبالرغم من كل ذلك نلاحظ اليوم حملة دعائية مدروسة ومنسقة تصاحبها أنواع التهم والاكاذيب والاشاعات قد استهدفت حسينية الارشاد وشخصكم الكريم، بل استطالت لتشمل والدكم (الاستاذ محمد تقي شريعتي) الذي كرّس عمره الشريف لخدمة الاسلام والمذهب. وسؤالنا هو: اولاً من الذي يقف وراء هذه الحملة الدعائية؟ وثانياً: ما هو الهدف من هذه المؤامرة؟

شريعتي: في الحقيقة لا استطيع الاجابة على الشق الأول من السؤال لسببين: أولاً: لأنني أعتقد انّ الجواب أوضح من الشمس، وثانياً لأنني أخاف! فلا يسعني إلاّ أن أقول بحذر -كي لا يسمعني الجدار- انّ هذه الجماعة لا تؤمن أساساً بالشيء الذي تتظاهر بالدفاع عنه!

وأما أهداف هذه المؤامرة والنتائج التي يريدون الحصول عليها فهي:

١ ـ السعي الى تشويه سمعة حسينية الارشاد بين الجماهير وابعادهم عنها.

٢ ـ السعي الى تشويه سمعة حسينية الارشاد بين المتدينين لعزلها عن المجتمع وتهيئة الأرضية اللازمة لتعطيلها.

٣ـ الدفاع عن موقع السادة الديني والاجتماعي والمحافظة على الوضع الموجود وحكر الأفكار الدينية في أُطر مغلقة لا تكون مفاتيحها إلاّ بأيديهم.

٤ ـ الذمّ بما يشبه المدح لأنّهم يدافعون عن رجال الدين بمنطق سقيم ولسان متفحش وافعال مستهجنة كالتزوير والتحريف والكذب والشتم والبهتان ويحرّضون العوام بأنواع الطرق الرجعيّة الحمقاء والتصرفات الهمجيّة التي تمجّها الانسانية والاخلاق ويرفضها العقل السليم. فالمستهدف هنا هم «رجال الدين» وليس أنا المعلم البسيط المتواضع الضائع. انهم يقومون بهذه الاعمال تحقيراً للعلماء لأنّ التجارب جعلت هؤلاء الأعداء الواعين الذين يخافون اسلام الغد أن يعوا حقيقة ان أفضل طريقة لطمس الحقائق ليست مهاجمتها بقوة، بل الدفاع عنها بضعف.

وقد عشنا هذه التجربة مراراً عديدة في الاسلام وفي الجامعة الاسلامية العلمية وخصوصاً في الحوزة العلمية الشيعية ورأينا انّ نتائج الهجوم المباشرة كانت معكوسة دائماً.

٥ ـ التبليغ «للمذهب الوهابي» الجديد وتضخيم هذه الفرقة التي لم يسمع أحد في ايران باسمها من قبل ونسب كلّ ذي فهم وشعور الى

هذه الفرقة الضالة.

٦ ـ عزل المجتمع الشيعي عن كيان الامة الاسلامية واثارة النعرات الطائفية والاحقاد السالفة من جديد وتبديل الخلافات المتطفية الموجودة بيننا وبين الاخوة اهل السنّة الى نزاع وخصام عميق وهذه هي الخطة التي عمل بها الاستعمار منذ القرن التاسع عشر لتمزيق وحدة المسلمين.

٧ ـ اثارة العواطف وافتعال الفتن واختلاق النزاعات الشديدة لصرف الأذهان عن العدو واخطاره ومؤامراته. فلم يكن امراً عفوياً ان يعلن احدهم من على منبر الاسلام: «انّ اسرائيل هي خير لنا ـ نحن الشيعة ـ من فلسطين فإنّ اسرائيل ليست عدوّة لأهل البيت وانما العدّو هم الفلسطينيون لأنّ اليهود أعطوا «فدك» لأهل البيت وسلبها هؤلاء منهم!!».

٨ ـ تنفيذ الخطة الاستعمارية القديمة التي رسمها علماء الاجتماع للمستعمرين: «حافظوا على الدين للعوام وروّجوا الإلحاد بين المفكرين».

٩ ـ تجنّب رواج الاسلام القرآني والتشيّع العلوي والحيلولة دون تعرّف الناس على الائمة والمجاهدين الشيعة خشية تحقق الاسلام الأصيل وتبديل «ولاية المشايخ» الى «ولاية تقدمية تحررية تصارع الجور والجهل والجوع».

١٠ ـ الشعور بخطر جفاف ينابيع الرزق والشرف اعني: الجهل، الطائفية، التقليد!

١١ ـ شلّ اقوى قاعدة للدعوة الاسلامية العالمية وأحد المركزين الرئيسين لإنتاج الفكر والثقافة الاسلامية (ايران) والتي كان المسلمون في شرق ووسط آسيا (مسلمو القفقاز والهند وافغانستان وباكستان واندونيسيا وماليزيا وحتى الصين) يستضيئون بنور ثقافتهم الساطع ويغترفون من معين علمائها وادبائها وشعرائها.

١٢ ـ قطع العلاقة وزرع بذور النفاق بين المفكر والجماهير والحوزة والجامعة والحديث والقديم والجامعي والحوزوي والمثقف والعامي و... لأنّهم يريدون الإلحاد للمفكر والتعصب للعامي والملاهي للشباب والمساجد للشيوخ الطاعنين في السن.

١٣ ـ كلّ حركة فكرية اسلامية تحاول طرح مبادىء «معرفة الذات» بشكل اسلامي تقدمي لابدّ لها ان تموت قبل ولادتها. فإن ولدت، لابدّ لها أن تشلّ، وان لم تشل لابدّ لها ان تشوّه وتلوّث وتطرد وإلّا سيتغيّر كلّ شيء... ولابدّ أن لا يتغيّر أي شيء!

* * *

س: مع انكم دعوتم أصحاب الرأي والقلم الى نقد آرائكم وأبديتم بذلك حسن نيتكم إلّا أنكم لم تعدلوا لحد الآن عن آرائكم حتى

لمرّة واحدة. هل يعني هذا انّ جميع آرائكم هي في غاية الاتقان وعارية من أيّ اشكال؟

ج: انّ الذي يجري حولي هو مؤامرة متعمّدة ومتقنة وواسعة النطاق وليست قضية نقد علمي أو عقائدي.

فالذي يقرأ قصة الغدير وقصة وفاة النبي ودراساتي لشخصيات الصحابة وعلاقاتهم الخاصّة وقصّة عصبية أبي بكر ووقوفها بوجه علي وكلماتي الخاصّة التي تعبّر عن حبّي واخلاصي ومدى حيرتي أمام عظمة علي ثم يقوم بعد ذلك بتحريض السذّج من الناس بأنواع التشجيع والعراك والسبّ والشتم والبهتان ويتهمني بالعداء للتشيّع والاسلام، لا يقوم بهذا عفوياً وانّما هي مؤامرة مدروسة متقنة. فكل من قرأ كتبي المنتشرة في كل مكان ـ يعلم انني بدأت الكتابة باسم «أبي ذر الغفاري» وكان عنوان آخر ما كتبته حتى الآن «التشيّع الاحمر والتشيّع الاسود». فقد كرّست حياتي الفكرية وكلّ ايماني للدفاع عن مدرسة علي والولاء للعترة الطاهرة والشعور بالمسؤولية تجاه النهضة الشيعية التحررية الثورية العادلة. فانّي لا أنظر الى حوادث ما بعد النبي من منطلق شيعي فحسب، بل أنظر الى مسيرة التاريخ البشري ككل من هذا المنطلق (الحسين وارث آدم) وأعدّ فاطمة (س) حلقة الوصل بين سلسلتي النبوة والامامة أي المرحلتين الأساسيتين في القدر التاريخي للعدالة والخلاص ـ كتاب (فاطمة هي فاطمة). فالذي لم يقرأ كتبي فإنّه سمع

بعناوينها على الأقل فقد نشر لي في السنتين الماضيتين فقط الكتب التالية:

«الحسين وارث آدم»، «الانتظار ومذهب الرفض»، «التشيع العلوي والتشيع الصفوي» «الامة والامامة في علم الاجتماع»، «الدعاء، مدرسة السجادة والاحتجاج والوعي والجهاد»، «الشيعة حزب كامل»، «التشيع الأحمر»، «علي: ثلاث وعشرون سنة جهاد من أجل الرسالة، خمس وعشرون سنة سكوت من أجل الوحدة وخمس سنوات صراع من أجل العدالة»، «علي، الانسان الكامل»، «وحدة علي»، «لو قال علي: نعم»، «علي حقيقة تشبه الأساطير»، «ما هي الحاجة الى علي؟»، «عصرنا يبحث عن علي»، «حياة علي بعد الموت»، «علي روح واحدة ذات عدة أبعاد»، «فاطمة هي فاطمة»، «مسؤولية الشيعي»، «أبو ذر في المواجهة مع عثمان»، «نعم، هكذا كان يا أخي»، «الشهادة = الحسين، ما بعد الشهادة = زينب»، «القاسطون، المارقون والناكثون» و....

وقد كتب غيري في حسينية الارشاد:

«الخلافة والولاية من وجهة نظر القرآن والسنة»، «علي شاهد الرسالة» و «موعود الأديان» للاستاذ محمد تقي شريعتي و «جاذبية ودافعة علي» و «الولاء والولاية» للاستاذ مرتضى مطهري و... وأكثر من مئتي محاضرة خاصة بمواضيع مدروسة اهل البيت (ع) ألقاها

مشاهير الخطباء في حسينية الارشاد ومع كل ذلك نلاحظون انّ هذه الجماعة تصرّ على افتعال الإشاعات واثارة الضجّة واختلاق أنواع التهم والشتائم رغم كلّ هذه الخدمات والنتاجات العلمية.

فكلّ ما كتب وقيل لم يكن نقداً علمياً، لا اريد ان اقول انّ كل ما كتبته ليس قابلاً للنقد ولكنّي أقول انّ كلّ ما سمعته لم يكن نقداً علمياً.

فإذا كنتم تقصدون انني اصرّ على كلامي ولا أقبل كلام غيري فإنكم مخطئون لأنّ كل من قرأ كتبي أو حضر دروسي يعلم جيداً بأني أنقد نفسي قبل أيّ شخص آخر وأكثر من أيّ شخص آخر وعندما أتوصّل الى مسألة جديدة تصحّح آرائي السابقة فاني أبادر بإعلانها والاعتراف بها فور التوصّل اليها وحتى أثناء الحصة الدراسية التي لا ترتبط بها. أمّا بالنسبة للاهتمام بآراء الآخرين فانّي أعطي ما أكتب دائماً الى طلبتي ليدلوا بآرائهم حولها واني اقبل هذه الآراء في غالب الأحيان، كما يعلم كل الذين تعاملوا معي ان لي اذناً صاغية وصدراً رحباً ازاء أيّ رأي اصلاحي أو أيّ نقد بنّاء بل حتى أترجّى الآخرين ان ينقدوا آرائي. أما أنا فأصحّح دائماً وفي كل درس او محاضرة تقريباً رأياً من آرائي واعلن دائماً انّ ما اقوله هو مجرد رأي ليس إلّا وأضع الميكرفون بين يدي كل من يريد التحدث في جلسة عامّة بعد كل ساعتين دراسيتين ليتحدث ثلاث أو أربع ساعات، وقد جاؤوا وتحدثوا وحتى تفضّلوا علينا بالاهانة! وما كان منّي ومن طلبتي ومن الحسينية إلّا أن نسمع ونصبر ونشكر!

أما اذا كنتم تقصدون ردّ فعلي ازاء سيل التهم والتهجمات والإشاعات الواسعة النطاق التي أثاروها بشكل متزامن وجابهتها بأذنين أصمّين ولسان أبكم فلكم الحق في ذلك ولكي لا تخطأ هذه الجماعة في تفسير هذا الكلام عليّ أن أقول انني سوف لا اسكت ابداً عن اولئك الذين لا يألون جهداً في خداع الناس وطمس كل فكرة وحركة تسعى لإحياء الايمان وتوعية الافكار وعن اولئك الذين يصوّرون إمام الشيعة بصورة مرتزق يسترحم الخليفة، ويصوّرون الحسين العظيم بصورة مضطرّ يسترحم الشمر، وسوف لا اساوم ولا اضحّي بالحقيقة من أجل مصلحتي الخاصة حتى لو صلبوني وسحقوني وكفّروني ... ورجائي وتوقّعي من كل من يشعر بالمسؤولية تجاه الدين والناس وخصوصاً علماء الشيعة الحقيقيين أن يعينوني في هذا الطريق. واما اولئك القوم فانّهم قد يستطيعون أن يصلبوني كما صلبوا «عين القضاة» أو يحرقوني كما حرقوا «جرنادو» لكنهم لن يقدروا أن يسمعوا مني صوت «آه» واحدة، وكما قال أبو ذر: لو ضغط غلمان عثمان وعبد الرحمن وكعب الاحبار (مثلث السلطة والذهب والتزوير) السيف على نحري ولم يبقَ مني إلّا نفس واحد فسألفظ ذلك النفس بقول كلمة حق، من أجل التشيع العلوي الذي اؤمن به بكل وجودي حتّى لو لم تكن هذه الكلمة لا تصبّ في صالح التشيع الصفوي!

والسلام



مؤسسة العطار الثقافية

E-mail: jafar_zh_attar@yahoo.com

فهرس الموضوعات


مؤسسة العطار الثقافية

تم بحمده

تاريخ اقتناء هذا الكتاب

٢٠١٠/١٢/١٤



حزني وألمي الوحيد هو انني لم أستطع ان انهي أعمالي . بل انني لم أستطع الاستمرار بها وستبقى تلك غصة ماثلة أمامي . هذا من جانب . ومن جانب آخر فان حزني وألمي على الكثير من اعمالي الرئيسية بقيت أسيرة زمانها . ومهددة بالزوال . وما نشر منها طبع على شكل مسودات مليئة بالاغلاط . وذلك لقلة الامكانات وكثرة المشاغل.

يجب عدم النظر الى أعمالي على أنها أعمال علمية تحقيقية فحسب . بل يجب ان تتلقاها كصرخات - من شدة الالم والاسى - وذلك باتجاه الطريق وهزات من أجل الصحوة، ومشاعل على الطريق . ونظرات كلية في اطار الدين ودعوة واحدة ورؤى . وأخيرا نوعا من التعبئة الفكرية والروحية في المجتمع.

كل ذلك كتبته وأنا منفي وتحت ظروف ضاغطة . ومؤمرات محاكة . وفي حال كنت أنتظر فيها المصيبة في كل لحظة . لذلك يجب أن يعاد النظر في هذه الكتابات من الناحية العلمية والفنية . وتصحيح الاخطاء اللفظية والمعنوية وتطبع مرة أخرى . فهي ثمرة حياتي . وكل ما أتمنى . وهي كل وجودي وميراثي.

ان لطف الله وحرقة أوليائه للدين . جعلتني أتكلم في هذا السكوت المطبق . في زمان أصبحنا نفقد فيه كل شيء . فأمتنا تعاني من مسخ هويتها . وغديرنا العذب في حال الجفاف وهذه منائرنا الشامخة بقيت بلا مدافع عنها امام الهمجية والغوغائية، حتى أمسى من الصعب ان يجد كلامي طريقه بين آلاف الاحقاد والآلام التي تحيطنا.

من وصية الدكتور شريعتي



دار

الفكر الجديد

العراق . النجف الأشرف

٠٧٨٠١٥٨١٤٧١ ❊ ٠٧٨٠١٠٣٦٠٠٨